١٠٥٦

Nahas

دار د. النحاس

1056

HARLEQUIN

عبير

الفتاة المتمردة

كارول مورتيمر

WWW.REWITY.COM

مرمورية

الفتاة المتمردة

كارول مورتيمر

كيف يمكنها ان تشعر هكذا؟
كان آخر شيء تريده صوفي بعد ذلك الزواج المشؤوم، هو الوقوع في الحب مرة أخرى، لأنها تعلمت من ذلك الدرس، أن تكون حذرة من الرجال. وكان ماكسيميليان غرانت من الجاذبية بحيث يغوي أكثر النساء، ولكن صوفي كانت في منزله لتكون مرافقة لابنته العنيدة جينيفر وليس لكي تتورط في حبه. وإن كان هذا لا يعني أنه من غير الممكن أن يهتم بها عندما يعلم بالضبط من هي صوفي وما هو ماضيها

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١ دينار - مصر: ٤ جنيه.

الفتاة المتمردة

كارول مورتيمر

«ان من التهذيب أن تفعلي ذلك، يا جين.»

تمتمت الفتاة متذمرة: «آسفة.»

اتسعت عينا ماكسيميليان لهذا الاذعان من ابنته، فنظر إلى صوفي متأملاً، ثم عاد ينظر إلى ابنته قائلاً بجفاء: «ربما يكون حظنا أفضل لو انك طلبت بنفسك من صوفي البقاء.»

كارول مورتيمر

كارول مورتيمر هي الصغرى بين ثلاثة أولاد. وقد نشأت في قرية صغيرة في منطقة بيدفورد شاير مع والديها وشقيقيها. ومازالت زيارة أسرتها، في قريتها تلك، هي عشقها الدائم.

وهي الآن، في منتصف الثلاثينات من عمرها، زوجة وأم لثلاثة أبناء يتدفقون حيوية. كما أن عندها أربعة هررة، وكلباً، مما لا يترك لها مجالاً للهوايات. وقد نشرت لها «دار ميلز وبون للنشر» حتى الآن، اكثر من ثمانين رواية.

عبير ١٠٥٦

Abir 1056

الفتاة المتمردة

كارول مورتيمر

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

انتبه ألا تبتاع هذه الرواية من غير غلاف لأنها قد تكون مسروقة، فيجب إبلاغ الناشرين لأن الكتاب الذي لم يبع، يجب إتلافه، فأي من الكاتبة أو الناشرين لم يتقاضوا ثمناً لهذه النسخة المسروقة.

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

GRACIOUS LADY

Copyright © by Carole Mortimer 1993

ISBN 0-263-77965-3

Mills & Boon first edition October 1993

الطبعة العربية الاولى عن مؤسسة النحاس ١٩٩٥

عنوان الطبعة العربية

الفتاة المتمردة بقلم كارول مورتيمر

ترجمة: بلقيس حوماني

سلسلة عبير ١٠٥٦

حقوق النشر باللغة العربية محفوظة ومحصورة في جميع البلدان لمؤسسة النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات – بيروت (دار م. النحاس) بترخيص من هارلكوين انتربرايزس ليمتد (Harlequin Enterprises Limited).

جميع الحقوق محفوظة. باستثناء استعماله في أي مرجعية، يمنع استنساخ هذا الكتاب أو استعماله كلياً أو جزئياً بأي شكل وبأي جهاز من الأجهزة الالكترونية أو الميكانيكية أو الوسائل الأخرى، المعروفة الآن أو التي يتم في ما بعد اختراعها، بما في ذلك الوسائل الزيروغرافية والتصوير والتسجيل أو تخزين أي معلومات منها أو استعادتها بأي جهاز من الأجهزة، من دون الحصول على إذن من الناشر.

كل شخصيات هذا الكتاب ليس لها وجود خارج خيال الكاتبة، وليس لها أية علاقة بأي شخص قد يصدف ويتشابه اسمه مع أحد الأسماء في الكتاب ولا تستند شخصيات الكتاب، أو الأسماء التي تحملها إلى أية شخصية تعرفها، أو لا تعرفها الكاتبة، بل كل أحداث الرواية هي من نسج الخيال الصرف.

العنوان: مؤسسة النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات . بيروت . لبنان شارع فردان بناية رضوان الطابق التاسع. ص.ب: ١١/٩٧١٨ . تلكس ٧٤٣٦٣١ (٠١) هاتف: ٧٤٣٦٣٣ . ٧٤٣٦٣٤ (٠١) . ٢١٦٢٩٣ (٠٣) سجل تجاري: ٧٥١٠ . بيروت. تسجيل العلامات التجارية في وزارة الاقتصاد دار م. النحاس للنشر ٥٩٤٣٩

عزيزي القارىء

مع مطلع العام ١٩٩٤، يسرنا أن نعيد إليك سلسلة عبير التي ابتهجتَ لصدورها في حينه وتحسرتَ لتوقفها في ما بعد، واشمأززتَ من كل محاولات التزوير والتقليد، بعد توقفها، بهدف استغلال شغفك للقراءة وحبك لمطالعة أدب بات الأدب الأكثر رواجاً في عالم اليوم.

ونحن، إذ نعيد اليوم هذه السلسلة الى مسرحها السابق، تعدك بانتظام اصداراتنا من عبير بمعدل ٥ روايات شهرياً لتكون سلواك في أوقات متعتك الخاصة.

كما تعدك ببذل الجهد المتواصل من أجل إطلاعك دائماً باللغة العربية على أحدث ما يصدر في هذه السلسلة العالمية وعن لغة الأصل: الانكليزية.

إن رفع وتيرة الاصدار والزيادة في تنويع المواضيع وألوانها إنما هما هاجسنا الدائم.

ولا تنس يا عزيزي القارىء، أن طبعة عبير هذه التي أردناها لائقة بك وبذوقك، إنما هي النسخة الأصلية.

وقوفك إلى جانبنا، إنما يعبر عن اخلاصك لنفسك وذوقك وحرصاً على وقتك الذي نوظفه لك في مجال أدبي ثقافي، مفيد وممتع.

إن وقوفك معنا يوفر لنا الدعم والمناخ اللذين لا بد منهما للمضي قدماً في رحلة العطاء الدائم والتجدد والتنويع...

الناشر

الفصل الأول

صرخت فيه صوفي ساخطة: «كيف تجرؤ؟ اوقف هذه السيارة حالاً ودعني اخرج.»

لقد اوقف السيارة حالاً، وكاد يدفعها دفعاً للنزول على تلك الأعشاب التي تحف بالطريق.

كان هذا هو سبب سيرها في تلك اللحظة على الطريق في ذلك الوقت الذي كان يقارب الواحدة صباحاً تقريباً، وهي تشتم وتلعن الرجال جميعاً وعلى الأخص برايان بيرنيت. يا لهذا الحيوان القذر الذي يتركها هنا في هذه المتاهة، حتى ولو كانت هي التي امرته بهذا. فالرجال لا يمتثلون، عادة، لما يؤمرون به، ما عدا برايان بيرنيت هذا رغم علمها بانه هو من عرض عليها توصيلها، ثم يسرع في طريقه تاركاً اياها هناك. كما انه لم يعد... تباً له. إن أي رجل كان لابد أن يدرك، في النهاية، ان من النذالة تركها هناك في هذا المكان المقفر في مثل هذا الوقت، ولكن ربع ساعة مضت عليها في سيرها هذا، دون ان تلمح انوار سيارة راجعة نحوها.

حيوان، نذل، حيوان، نذل... وكانت توقع خطواتها على هاتين الكلمتين بالتناوب.

كانت ترجو ان تكون خالتها ميلي قد تركت الباب الخلفي مفتوحاً لأجلها، كي لا تضطر خالتها للنهوض من فراشها في الساعة الواحدة والنصف صباحاً، لكي تفتح لها الباب.

ربما ما كان لها ان تخرج هذا اليوم، ولكن صديقتها آلي اتصلت بها هاتفياً، وكان سوء حظها ما عانته من حذائها العالي الكعب هذا الذي لم تتعوده. فهي لاتتذكر آخر مرة لبست فيها حذاءً عالي الكعب، وكذلك التنورة. ذلك ان البنطال والقميص المقفول كان لباسها المعتاد. ولكن آلي اخبرتهاانهما ستذهبان الى مكان عام لتناول المرطبات وهكذا ارتدت قميصاً اخضر وتنورة بنية اللون. ورأت من بعيد انوار سيارة قادمة نحوها من غير الطريق الذي ذهب منه برايان. وتذكرت بسرعة انها وحدها هنا. وتلاشى شعور الإرتياح الذي ساورها حال رؤيتها للسيارة تلك، ماذا لو كان سائق هذه السيارة إمراة، ولكن لا، فان حظها هذا المساء ليس حسناً الى هذا الحد.

وبينما كانت تضرب أخماساً بأسداس، لا تدري بما يحسن أن تتصرف، كانت السيارة قد اقتربت منها، ثم توقفت بجانبها إذ لا بد ان السائق قد رآها.

هتفت في سرها، أرجو ان يكون السائق رجلاً طيباً.

وجاءها صوت السائق: «هل يا ترى، في وضعك هذا، تحاولين تعريض نفسك؟»

وحدثتها نفسها بأنه ليس بالرجل الطيب، ولكن هذا الرجل الذي بدا منظره مخيفاً في الظل، إلى صوته الخشن المثير للأعصاب باتهامه هذا لها، كان واضحاً أنه يعتقد بأنها، بتجوالها في الطرق الريفية في منتصف الليل، كانت تريد ذلك تماماً.

تابع بقسوة وعيناه تتألقان في الظلام: «وربما للأسوأ.»

لا بد أنه كان يقصد إخافتها... حسناً، ما كان له أن يكلف

نفسه عناء ذلك لأنها خائفة فعلاً. وقال آمراً بلهجة لا تقبل الجدل: «إصعدي إلى السيارة.»

تصعد إلى السيارة؟ قد تكون غبية، ولكنها ليست بمجنونة لكي تصعد إلى سيارته فتصبح تحت قبضته.

قالت له وهي ترفع ذقنها الصغيرة، متطاولة بقامتها: «يجب أن احذرك أنني أعرف فن الكاراتيه.»

أليس كل شخص لا بد وأن يكون قد شاهد فيلم كاراتيه واحد على الأقل؟ وتمنت، بينها وبين نفسها، أن لا تضطر إلى استعمال هذا الفن الذي لم تكن تعرف منه، في الواقع، حتى القليل جداً.

أجاب هو بصبر نافد دون أن يغير من لهجته الخشنة: «هذا حسن. والآن إصعدي إلى السيارة.»

ازدردت صوفي ريقها وهي تحاول أن تخمن المسافة التي تستطيع قطعها إذا هي ركضت بحذائها العالي الكعب هذا الذي كان يعيقها عن السير، والذي أحدث بثوراً في أصابع قدميها، وذلك قبل أن يدير هذا الرجل محرك سيارته ليلحق بها ويمسكها. ولكن فكرة الركض عبر الحقول، بدت لها جنونية سرعان ما نفتها من ذهنها حتى ولو كانت تحاول الهرب من هذا الرجل. لأنها لن تتمكن من الابتعاد عنه كثيراً بهذه الطريقة. إذ أن محرك السيارة كان لا يزال يشتغل. و ربما تثير هي المزيد من عدائه لها في ما لو جشمته عناء اللحاق بها. ولم تعرف كيف تتصرف وهي تشعر بصبره ينفد شيئاً فشيئاً.

أخيراً، قال لها بصوت هادىء أثار ذعرها: «إما أن

تصعدي السيارة لأوصلك إلى القرية، وإما استدعي الشرطة محملاً إياهم عناء القدوم إلى هنا لأخذك.»

هتفت: «أوه، نعم. هذه فكرة عظيمة. يوجد هاتف في القرية يمكنك أن تتصل بهم منه...»

لم تكن صوفي، في الحقيقة، تنوي انتظار حضور رجال الشرطة لأخذها، ذلك أن خالتها ميلي لا بد ستصاب بالإغماء إذا هي علمت بعودتها بسيارة الشرطة، ولكنها كانت تريد التخلص من هذا الرجل، لتهرب من المكان قبل وصول رجال الشرطة.

لكن الرجل قاطعها: «عندي هاتف في السيارة.»

هاتف في السيارة؟ ما الذي منعها من التفكير في ذلك؟ تباً للتقنية العصرية. كان ذلك مستحيلاً منذ عدة سنوات بينما الآن، كما يبدو، أصبح في استطاعة أي شخص أن يقتني هاتفاً في سيارته. حسناً، لقد واتتها فكرة... إنها تستطيع اكتشاف خداعه عند استعمال الهاتف، ومن هذا يمكنها أن تتأكد مما إذا كان حقاً يريد أن يوصلها بسيارته إلى القرية، أو أنه فقط يتظاهر بذلك إلى أن تصبح داخل سيارته.

قالت: «إذن، هل أستطيع أن أخابر خالتي؟» قالت ذلك بهدوء لا تريد أن تستثير عداءه، خاصة وأن ما قالته عن خبرتها في الكاراتيه كان ادعاءً محضاً.

لم يسمح لها الظلام برؤيته بشكل واضح، ولكنها، مع هذا، استطاعت ان تخمّن أنه كبير الحجم من المساحة التي كان يحتلها من داخل السيارة، وكذلك بدا لها صوته قوياً مسيطراً وكأنما قد اعتاد على أن يأمر فيطاع، ولا بد أنها قد أثارت ضيقه بعدم اطاعته بصعود السيارة.

تابعت تقول: «لقد تأخرت عن الوقت الذي أخبرت فيه خالتي برجوعي إلى البيت. وسيتملكها القلق لأجلي.» والحقيقة أن القلق لن يتملك خالتها مطلقاً لأنها ستظنها الآن في فراشها مستغرقة في النوم منذ ساعات وستستاء جداً إذا هي عرفت الحقيقة، ولكن استياء الخالة ميلي كان أهون الشرين.

أجابها الرجل باستخفاف: «لو كنت ابنة أختي لقلقت عليك نفس الشيء. هاك الهاتف. اتصلي بخالتك.» ويبدو أن افتراض صوفي بأن خالتها لا بد ذهبت إلى فراشها، كان صحيحاً إذ لم يجب أحد في الطرف الثاني من الهاتف. وقالت صوفي للرجل شاعرة بنفاد صبره: «ربما استغرقت في النوم أثناء انتظارها لي.»

أجاب وقد بدا التقريع في صوته: «هذا لا يدهشني.»

لن تعرف صوفي ما الذي اعطاه الحق في تقريعها بهذا الشكل. فلو لم يكن ساهراً الليل مثلها، إلى هذه الساعة، لما دار بينهما هذا الحديث الآن... ثم أن هناك أسباباً معروفة، عادة، لتأخر الشخص إلى هذا الوقت خارج منزله في هذه المنطقة الريفية...

قالت: «إنني متأكدة من أنها ستسمعني...آه، خالتي ميلي.» وبدا في صوتها السرور وهي تسمع، أخيراً صوت خالتها في الطرف الثاني من الخط، رغم أن صوت خالتها، عندما ميزت صوت صوفي لم يكن مطمئناً...

سألتها خالتها ساخطة: «ما الذي جعلك... هل تعرفين كم الساعة الآن؟ أين أنت؟ وماذا كنت تفعلين إلى هذا الوقت من الليل؟ كنت أظنك في فراشك منذ ساعات. هذا شيء غير محتمل، يا صوفي.»

قالت صوفي متملقة: «إنني أدرك مبلغ قلقك علي، يا خالتي ميلي.» وكانت تريد أن يسمعها ذلك الرجل الذي كان جالساً يستمع، إذ أن خالتها كانت في هذه اللحظة، غاضبة اكثر منها، وهي لا تلومها على ذلك، إذ أن خالتها ترغب دائماً في النوم باكراً، وربما كانت نائمة منذ ساعات عندما أزعجها الهاتف برنينه الملحاح ذاك. وتابعت صوفي: «أريد فقط أن أعلمك أنني سأكون في البيت في أقرب وقت. وذلك...»

قاطعتها خالتها غير مصدقة: «هل أيقظتني من نومي لتخبريني أنك ستكونين في البيت في أقرب وقت؟ صوفي...»

قاطعتها صوفي مستمرة في التمثيل: «نعم، هذا صحيح... لقد بقيت آلي في المدينة، فعدت إلى القرية مع... مع صديق آخر.» كان حديثها هذا يسوده الارتباك، فقد أرادت أن تطمئن خالتها دون أن تنبهها، بينما، في نفس الوقت، كانت تريد أن يعرف هذا الرجل أن ثمة من يعرف مكانها وينتظر وصولها إلى البيت في خلال نصف ساعة، وهو الوقت الذي يستلزمه وصولها من المدينة.

سألتها خالتها بحنق: «أي صديق هذا؟ اسمعي يا صوفي... إنك هنا منذ يوم واحد فقط، وابتدأت تقومين بكل هذه الفوضى!»

قالت صوفي ببطء: «أي صديق؟» كانت تردد هذا السؤال وهي تفكر بسرعة مدركة انها ربما تجعل الأمور اكثر سوءاً بقول نصف الحقيقة. وتابعت: «اسمه...» وجاءها صوت الرجل من داخل السيارة يقول بهدوء: «ماكسيميليان غرانت.»

قالت صوفي وهي تحدق إلى داخل السيارة مرتاحة: «ما... برايان بيرنيت!» أيمكن أن يكون ماكسيميليان غرانت، من بين كل الناس هو الذي صادفها هنا؟ حسناً. انها لم تقل اسمه لخالتها، إذ تكون بذلك، كما لو أنها وضعت هرة بين الحمائم. وعادت تكرر بهدوء: «برايان بيرنيت.» وأدارت ظهرها إلى السيارة وهي تتابع بسرعة محاولة التخلص من هذا الوضع: «انك تتذكرينه. إنه شقيق آلي.»

كانت تشعر بالتعاسة في أعماقها، فهي لا تتذكر أنها سبق وأطالت الزيارة عند أحد من قبل إلى هذا الحد. ماكسيميليان غرانت؟ من بين كل الناس؟ ما كان ليهمها رأي شخص سواه... ولم تستطع تصديق حظها هذا.

أجابتها خالتها: «انني أذكره طبعاً. لقد كان...»

قاطعتها صوفي بسرعة: «علي أن أذهب الآن، يا خالتي، سأعود سريعاً وسنتحدث عن ذلك.»

أجابت الخالة: «إنني ذاهبة إلى الفراش، يا صوفي وسنتحدث في الصباح.»

كانت صوفي تعرف جيداً أن خالتها، حين تقول (نتكلم في الصباح)، فهي تعني بذلك أنها هي التي ستتكلم وصوفي، ستستمع وتتعلم، ليس إلاّ. إن من السخرية أن تبقى، وهي في الثانية والعشرين، تحت سيطرة خالتها وعرضة للسانها الحاد. ولكنه كان درساً قاسياً تعلمته أثناء اجازات الصيف الطويلة مع أسرة خالتها عندما كانت هي طفلة. وكانت طباع خالتها تزداد حدة مع مرور السنين. ولم يعد هناك ابنة خالتها آرليت التي كانت تلطف من

التصادم الذي كان يحدث غالباً بينها بتهورها وطيشها، وبين خالتها بضيق خلقها الدائم. ولكن آرليت الآن بعيدة في المانيا.

عادت صوفي تتمتم في سماعة الهاتف بشيء من التردد: «ولكن، ليس معي مفتاح للبيت لكي أدخل.» وكانت طوال الوقت تعمل ذهنها في ما عليها أن تفعله بالنسبة لهذا الرجل الجالس في داخل السيارة بنفاد صبر، لا تعرف ردة فعله لهذا التأخر.

لكن اهتمامها وخوفها الآن، قد تحولا إلى وجهة أخرى. لم تعد تخاف منه أن يقتلها، ولكنه، على كل حال، له سلطة على حياتها.

أجابت خالتها غير مصدقة: «صحيح أن عقلك مازال محدوداً يا صوفي. كنت أظنك نضجت في السنوات الأخيرة. ولكنني أرى من تصرفك هذه الليلة أنك مازلت كما كنت من انعدام الشعور بالمسؤولية. انني لن...»

قاطعتها صوفي مظهرة الشكر لعرض لم تقدمه لها خالتها: «انك ستنتظرين إذن.»

لقد خرجت هذا النهار لمقابلة آلي بكل براءة، فقد كانت مشتاقة لرؤية صديقة طفولتها. ولهذا غيرت كل خطتها للأسبوع القادم الذي كانت بحاجة إليه حقاً. كان الأمر كله هو خطأ برايان بيرنيت، وتساءلت عما اذا كانت ما تزال تكن له نفس المودة التي كانت تشعر بها نحوه عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها. وكان يكبرها وآلي و آرليت بثلاث سنوات. وكان يبدو لها طيلة السنوات المنصرمة، بطلاً رائعاً... وعبست وهي ترى سيارة اخرى قادمة، من الناحية

المعاكسة هذه المرة... وبهر ضوء السيارة عينيها في هذا الظلام.

قالت بسرعة قبل ان تنهي المخابرة لتقطع على خالتها أي احتجاج آخر: «سأراك قريباً يا خالتي.»

لم تكن تشك في أن خالتها ستقابلها، عند عودتها إلى البيت، بثورة بالغة. ولكن المهم الآن، كيف ستتصرف مع ماكسيميليان غرانت. وكيف سيمكنها التخلص من هذا الوضع. انها لا تعرف. وعندما يعرف هو من تكون...

لما ناولته سماعة الهاتف، قال لها وهو يدير محرك سيارته: «هيا، اصعدي الى السيارة الآن.»

لم يكن في استطاعتها أن تعرف شخصيته في الظلام، وكان يمكنها ذلك، في ضوء النهار...

عادت انوار السيارة التي كانت قادمة نحوها من الجهة المقابلة، تبهر ناظريها وهي تقترب منها. يا لسوء الحظ. أما كان من الأفضل لها لو بقيت في الظلام فلا تظهر ملامحها؟ إنها متأكدة الآن من ان شعرها لا بد انه يبدو، في هذا الضوء الساطع كشعلة حمراء، فهو متميز جداً، لا ينسى. ووقفت الآن السيارة الأخرى...

هوذا فارس آخر شهم يتقدم ليساعد سيدة في مأزق... لقد أصبحا إثنين! ولكنها لم تستطع تمييز السائق بشكل أفضل مما ميزت فيه ماكسيميليان غرانت ولكنها استطاعت أن ترى فيه رجلاً ضخماً وراء عجلة القيادة.

استطاعت أن تميز صوته جيداً وهو يقول: «إنني آسف، يا صوفي.»

لقد كان برايان بذاته قد عاد أخيراً لأجلها، وتابع قائلاً

وهو يطفىء محرك السيارة: «انني تصرفت كالحمقى حقاً.» ونزل من السيارة يعبر الطريق نحوها، ليعود فيقول: «لقد وصلت إلى البيت قبل أن أدرك مقدار غبائي في...»

قاطعته بسرعة: «لا بأس.» وتقدمت إلى الأمام، توقفه عن أن يتقدم فيرى سيارة ماكسيميليان غرانت. وهي تستطرد: «المهم هو أنك هنا الآن. عد إلى سيارتك وسألحق بك بعد دقيقة، اذ علي ان اشكر هذا الرجل المهذب لتوقفه عارضاً المساعدة.» وكانت، وهي تتكلم، قد أدارت برايان في اتجاه سيارته ومن ثم دفعته اليها.

لكن دفعه بهذا الشكل لم يعجبه، فقال: «ولكن...» قاطعته بحدة، إذ كانت حريصة على أن لا يرى الرجلان، الواحد منهما الآخر، فينتهي كل شيء بالنسبة إليها، قاطعته قائلة: «عد إلى السيارة يا برايان.»

كرر اعتراضه: «ولكن...»

عادت تقول وهي لا تكاد تخفي اللهفة في صوتها: «قلت لك ان تنتظر في السيارة يا برايان.»

قال وكأنه لا يعرف سبب كل هذه الأهمية. «لا بأس، لا بأس. لقد عدت فقط لكي أعتذر منك.» وعاد إلى مقعد القيادة في سيارته، ليصفق الباب خلفه بشدة وهو يتمتم ساخطاً.

من الأفضل ألا يتركها ويذهب مرة أخرى، والا فانها عندما تراه مرة أخرى، ستشنقه سواء كان شقيق آلي أم لا.

قال ببطء، بلهجة يبدو فيها الارتياب: «لقد فهمت من ذلك الحديث بينكما الآن، ان وجودك بمفردك في هذا المكان

والوقت، كان نتيجة عناد حبيبين.» وكان صوته خشناً وهو يتابع كلامه، عندما فتحت صوفي فاها لتحتج مرة أخرى لهذه الصفة التي أسبغها على معرفتها ببرايان. ذلك انها لم تكن قد رأت برايان منذ سنوات. وكان هذا هو السبب الأكبر الذي جعلها تغضب من تصرفه معها.

تابع ماكسيميليان غرانت حديثه قائلاً بجفاء: «عليك ان تعيدي النظر في علاقتك برجل ألقى بك من سيارته، في مثل هذه المتاهة، في الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً.»

شهقت صوفي ساخطة وهي تجيبه: «ولكنه لم يلق بي من سيارته. انني أنا التي اجبرته على ايقاف السيارة لكي أخرج.»

عاد يقول بخشونه أثارت اعصابها: «مهما يكن، العمل لا يدل على أي شعور بالمسؤولية عندكما، انتما الاثنين.»

اجفلت وهي تراه يصفها بانعدام الشعور بالمسؤولية إذ ان هذه الصفة هي آخر ما كانت تريده أن تكوّن عنها فكرته.

عاد يقول بنفاد صبر: «كان يمكن ان تضيعي في هذه الطرق الموحشة في هذا الوقت من الليل وذلك لكي تحفظي كرامتك.» منعها استنتاجه هذا من أن تكرر تبرير تصرفها السابق في نزولها من السيارة. لقد كان الحق معه، فقد كان بامكانها ان تحفظ كرامتها مع برايان دون ان تضطر إلى النزول من السيارة لأجل هذا.

أضاف يقول بخشونة: «أنصحك، بالنسبة إلى المستقبل، باختيار أصدقاء أكثر شعوراً بالمسؤولية.»

بدا لها كلامه هذا امراً اكثر منه نصيحة. ولكن، بما أنه عاد يدير المحرك ليبتعد بالسيارة، فلم تهتم بكلامه ذاك. فقد كانت مسرورة لذهابه في النهاية. وتنفست، لأول مرة، بعمق، منذ ذكر ذلك الرجل اسمه. كيف حدث ان تكون سيارته، من بين كل سيارات العالم هي التي صادفتها في هذه الظروف؟

خاطبها برايان وهو ينزل زجاج سيارته: «هل يمكننا متابعة السير الآن، يا صوفي؟ انني اعرف ان غداً هي العطلة الأسبوعية، ولكن علي انا بالذات ان أعود إلى العمل... وقد تأخر بنا الوقت...»

قالت ثائرة وهي تصرّ بأسنانها بينما تتوجه نحوه: «حسناً، انك حسن الحظ إذ أختار العودة معك.» وفتحت الباب لتجلس بجانبه، اذ لم تتوقع ان يكون من الحساسية بحيث ينزل من مكانه ليفتح لها الباب. وعادت تقول: «شكراً لك... انني، آه. لا بأس. يمكنك ان تسير. فأنا لست بشوق إلى أن أطيل بقائي في صحبتك.» وأخذت تحدق أمامها عابسة دون أن ترى شيئاً.

تنهد بضجر إذ رآها توجه اليه نظرات ثائرة، وتابع بذلك وكأنه يحدث نفسه وهو يزيد من سرعة السيارة، مستطرداً: «لقد اخطأت حقاً، ولكنني عدت فاعتذرت. ولا أدري لماذا لا تنسي كل ما حدث.»

كانت تلك هي المسألة كلها في نظره. لم تكن لديه فكرة عن انها قد لا تستطيع نسيان ذلك. اذ ان خالتها ميلي تنتظرها في المنزل، ولا يبدو أنها ستنسى ذلك بسرعة. وكان ثمة شيء أكثر اهمية، الا وهو ماكسيميليان غرانت.

عندما لم تجب صوفي على كلامه، تنهد مرة اخرى بضجر قائلاً: «ستفتك بي آلي.» ولم تندهش صوفي وهي تعرف مبلغ حدة طباع صديقتها منذ الطفولة.

قالت تجيبه مع أن اعصابها قد ابتدأت تهدأ: «لن يكون ذلك أكثر مما تستحق، وكان ينبغي أن أعلم آلي بكل شيء، ولكنني لن أفعل. إذ ستكون، عند ذلك، كمن يلقى به إلى السباع. وعلى كل حال، فأنا لا أجد سبباً يدفعني إلى إخبار آلي بكل هذه الأشياء.»

قال برايان وقد بدا عليه الشعور بالارتياح: «أشكرك.» وساور صوفي نوعاً من الشعور بالذنب لشكره ذاك لها إذ كانت تتمنى، هي أيضاً، لو بقيت هذه الحادثة سراً بينهما هما الاثنين.

عاد يقول عابساً: «إن شقيقتي تصبح، أحياناً، لا تطاق.»

قادها كلامه هذا إلى التفكير في خالتها ميلي عندما تصل إلى البيت. وجعلها التفكير في ذلك تستغرق في صمت عميق، ولم تتمكن من استعادة روحها المرحة. وتساءلت عما إذا كانت ستتمكن بعد أن تنتهي العاصفة بينها وبين خالتها، من الابتسام مرة أخرى.

لهذا، لم تدهش قط وهي ترى منزل خالتها يتألق بالأنوار عندما اقتربت منه. وعندما استدار برايان بالسيارة على مسافة من المنزل طلبت منه أن ينزلها وهي تقول رداً على نظرته المتسائلة: «إن طباع شقيقتك آلي لا تقاس بها طباع خالتي الملتهبة. وكما ترى، أضواء البيت مازالت مشعة.»

تصورت صوفي خالتها الآن وهي جالسة إلى مائدة

المطبخ، وقد شدت حول خصرها العريض حزام روب الحمام الذي ترتديه، وقد بدا وجهها الوردي خالياً من أية زينة حتى من البودرة واحمر الشفاه الذي اعتادت على الظهور به دوماً أثناء النهار. وقد يكون في رأسها، أيضاً، لفافات الشعر، وهذا يعتمد على ما إذا كانت قد غسلت شعرها هذا المساء. ولم تكن صوفي متأكدة من هذا الشيء الأخير حيث أنها كانت قد تركت المنزل مبكرة. ولكنها كانت تعلم أن ليس من عادة خالتها، وهي تنتظر، أن تقوم بشيء ما، كالقراءة او الكتابة... كانت تنتظر فقط!

لم ينتظر برايان أكثر من هذا، فأوقف السيارة بعيداً عن المنزل، واستدار إليها يقول بشجاعة: «إذا كنت تريدينني أن أدخل البيت معك، فسأفعل.»

ضحكت صوفي برقة قائلة: «هذا عرض حسن منك يا برايان وأنا شاكرة لك هذا، ولكنني أعتقد أن من الأفضل أن أقابل خالتي وحدي.» وكان السبب الرئيسي هو أنها كانت خائفة من أن يزل لسان برايان أمام خالتها مما يزيد الأمر سوءاً.

كانت صوفي لا تزال تفكر في ما ينبغي ان تقوله لخالتها، في حال أعطتها، هذه، الفرصة لقول أي شيء.

شعر برايان بشيء من الراحة لرأي صوفي هذا، وقال: «إذا كنت متأكدة من أن هذا ما تفضلينه، فسأعود لزيارتك بعد عدة أيام، فهل عندك مانع؟» وأجفل وهو يراها تهز رأسها رافضة اقتراحه هذا وهي تقول: «لقد عدنا أصدقاء يا برايان. فلنترك الأمور عند هذا الحد.»

رد عليها بجفاء: «شكراً.»

ضحكت بخفة وهي تغلق الباب ثم تسير في طريقها نحو المنزل شاعرة بالشكر لبرايان الذي أبقى أنوار السيارة مضاءة موجهاً اياها نحوها إلى ان وصلت إلى باب المنزل. فقد كانت ليلة مظلمة. وقد استلقت الظلال على الطريق بصمت موحش.

استدارت تلوح بيدها لبرايان الذي كان يستدير بسيارته، ثم ينطلق في طريقه، بينما كان النور المنبعث من نافذة المطبخ يكشف عن تلك السيارة الواقفة في الخارج. وعاد الانفعال إلى صوفي لمنظر السيارة هذه، لتدخل بعد ذلك، المنزل برجلين ثقيلتين.

ما ان دخلت المطبخ، حتى أدركت أنها كانت مخطئة، في الاحتمالات الأربعة بالنسبة لخالتها، فهي لم تكن جالسة عند الطاولة، ولكنها واقفة بجانبها تضع فنجاناً وصحنه على صينية. ولم تكن في ملابس النوم، بل كانت ترتدي أحد أثوابها المعتادة. وبدا أنها وضعت على وجهها البودرة وأحمر الشفاه حديثاً. ومع أن صوفي رأت أن خالتها قد غسلت شعرها من فترة قريبة، فهي لم تكن تلفه في اللفائف، بل سرحته بالفرشاة بطريقة بسيطة.

تنهدت صوفي في سرها، ثم ما لبثت أن قالت: «خالتي ميلي؟»

أجفلت خالتها وقد بدا بوضوح أنها لم تسمع صوت دخول صوفي، حتى كادت تسقط اناء السكر من يدها. ونظرت إلى صوفي بصبر نافد وهي تضع من يدها إناء السكر بعنف قائلة: «انني لم أسمعك تدخلين.» وعاد انتباهها إلى الصينية، لتضيف ابريق القهوة ووعاء القشدة،

ثم تومىء برأسها، أخيراً، راضية مطمئنة إلى أن كل شيء في مكانه المناسب.

قالت صوفي بحذر: «الآن فقط أعادني برايان. انني أريد أن أشرح لك يا خالتي ميلي...»

قاطعتها خالتها بضيق: «ليس الآن يا صوفي، ألا ترين انني مشغولة؟»

إنها ترى طبعاً قدر انشغال خالتها، ولكن الحاجة ملحة إلى أن تشرح لها عن...

عبست خالتها وهي تحمل الصينية بيدها قائلة: «إذا أردت أن تساعديني حقاً يا صوفي، فافتحي لي الباب.»

الفصل الثاني

ماكسيميليان غرانت.

انه مالك هذا البيت والأراضي المحيطة به. ورئيس خالتها التي تعمل مدبّرة لمنزله. وقد وصل إلى البيت في منتصف الليل، على غير انتظار.

لقد عرفت صوفي صوته حالما تكلم وهو يفتح الباب. وقد تجمدت، بطبيعة الحال، في مكانها وراء ذلك الباب، وربما كان هذا هو السبب في أنه لم يرها بعد. وتساءلت عابسة، أتراه سيعرفها إذا هو يراها؟ وبأي شكل يعرفها فيه؟ هل بشكل المرأة الشابة التي صادفها بمفردها في منتصف الليل (تعرّض نفسها للأذى أو ربما ما هو أسوأ).

بماذا دعاها أيضاً؟ (عديمة الشعور بالمسؤولية) آه، نعم، لقد قال انها ينبغي أن تختار، في المستقبل، أصدقاءها بحكمة أكبر. وبالنسبة إليها، فقد كان من المفروض أنها ستعمل مرافقة لابنته حين تحضر من المدرسة لقضاء إجازة أسبوع. ولكن، بعد هذه القائمة من السيئات التي اكتشفها فيها، فهي لا تظن أنه سيقبل بمرافقتها لابنته بعد الآن.

تنهدت بضجر وهي تفكر في أن عليها أن تعود إلى حزم أمتعتها بهذه السرعة. فقد وصلت أمس بعد الظهر فقط. ولكنها تخلت عن الأمل في ألا يدرك أنها نفس المرأة التي كانت تسير في الظلام في ذلك الطريق الريفي. ذلك أنها إذا

كانت قد ميزت صوته بتلك السرعة، فلماذا لا يميز هو صوتها كذلك؟ خاصة وأن الحادثة مازالت حديثة وسهل تذكرها؟ وهل تراه يقف كل ليلة في طرقات القرية يقدم معونته لسيدات يقعن في مآزق؟ حتى وإن فعل، فهل يحدث دوماً أن تلك السيدات يصادف أنهن طالبات للعمل عنده كمرافقات لابنته؟

لم تقاوم ابتسامة لدى هذا الخاطر. لقد جعلها هذا الوضع قريبة من الهستيريا، فهي لا تستطيع أن تنكر أنهما تقابلا في ظلمة الليل، وأن مكسيميليان غرانت كان قادماً إلى منزله الريفي، بينما كانت هي قادمة لتكون مرافقة لابنته التي لم ترها بعد.

لا بأس، فإن جينيفر، ابنة ماكسيميليان لن تصل في إجازة نصف السنة تلك قبل غد. وقد ابلغت صوفي رسمياً أنها ستكون مرافقة لها أثناء تلك الإجازة.

كانت تحاول تسلية نفسها بهذه الأفكار. ولكنها شعرت بضآلتها أكثر من أي وقت آخر. ولم تكن مكتئبة. ذلك أنها سبق وأقسمت، بينها وبين نفسها منذ زمن طويل، أنها لن تدع ذلك الشعور يظلم حياتها مرة أخرى، كلا ولا الملل كذلك. فهناك، على الدوام، أشياء تستحق الرؤية، وأشياء كثيرة عليها القيام بها. فلا تسمح لها بالوقوع فريسة ذلك المرض، ولكنها، مع هذا، وجدت نفسها قريبة جداً من الكآبة.

«دجاج مشوي؟» ولم تدرك صوفي أن خالتها إنما كانت بذلك تجيب طلب مخدومها لساندويتش. ولقد كانت خالتها تتوقع حضور ماكسيميليان غرانت في الصباح. فأمضت طيلة النهار في طبخ الأنواع المفضلة لديه لعطلة الأسبوع

القادمة، حيث أنه في العادة يمضي أيام الأسبوع في شقته في لندن، ولم تكن خالتها لتحب شيئاً اكثر مما تحب رعاية شخص ما وإطعامه. فقد شكت لصوفي، بعد ظهر هذا اليوم، وهي تصنع الفطائر والكعك أنها متأكدة من أن السيد غرانت لا يهتم بنفسه أثناء وجوده في لندن بما فيه الكفاية، فهي لا تستطيع أن تفهم السبب في أنه لا يمضي اوقاتاً اكثر في منزله هنا. لقد اختلف الأمر معها، بعد أن انتقلت ملكية المكان من آل غراي إلى ماكسيميليان غرانت. وقد كان لأولئك المالكين السابقين ثلاثة أولاد يقيمون في المنزل. وعندما باعوا المنزل هذا منذ عام تقريباً، ومع أن خالتها طلب إليها البقاء في عملها كطاهية ومدبرة منزل، إلا أنها كانت، في الحقيقة، أكثر استمتاعاً بوجودها في هذا المكان أثناء وجود تلك الأسرة بأولادها الثلاثة. وربما الآن، حيث أن ماكسيميليان غرانت وابنته قد عادا.

قال: «هذا حسن. سآخذ معي صينية القهوة مع...» وسكت فجأة وهو يستدير بحدة فيسمر صوفي بنظرات كالثلج من عينيه. وقال لخالتها بحدة: «لم أعلم أن عندك أصحاباً هنا.»

تحولت ابتسامة صوفي الباهتة، إلى عبوس، أمام العداء الصارخ الذي بدا في صوته. لقد تبدد الآن ذلك التهذيب الذي كان في لهجته وهو يحدث خالتها ليحل محله شيء لم تدر بالضبط كنهه.

لا بد أنه كان يعلم أن المرأة التي كان من المفروض أن يقابلها هنا لكي تكون مرافقة لابنته، إذ كان قد طلب أن يجري معها مقابلة صباح السبت قبل أن تصل ابنته جينيفر

من المدرسة الداخلية عند الظهر، أن هذه المرأة ستكون هنا، كما أنه كان يعلم كذلك أنها ابنة أخت مدبرة منزله، وبهذا لم يكن في الأمر أية مشكلة. ومع هذا، تراه يتصرف، بالنسبة إلى وجودها هنا وكأنها دخيلة. لماذا هذا وهي لم تتكلم بعد؟

عندما رأت دهشة خالتها وترددها إزاء لهجته العدائية، قالت تقدم نفسها: «إنني صوفي غوردون ابنة أخت السيدة كرين.» تقدمت نحوه وهي تمد يدها إليه بأدب. وتوردت وجنتاها وهي ترى عيني السيد غرانت تضيقان بحيرة.

هل هو صوتها؟ لا بد أنه عرف صوتها إذ أخذ يتأملها من رأسها حتى قدميها منتقداً.

كانت صوفي تعرف تماماً ماذا يرى فيها... إنه يرى شعراً احمر، أشعث مجعداً يستعصي على أية تسريحة، وعينين كبيرتين عسليتين، وأحياناً خضراوين، حسب مزاجها، وكانتا هذه اللحظة خضراوين، وأنفاً صغيراً، وفماً مقوساً وذقناً توحي بالعزم. وكانت ترتدي على جسدها النحيف، تنورة وقميصاً لم تتعود ارتداءهما. وكان لمعان قميصها الحريري هذا جعله يميزها جيداً من نور سيارته. حسناً، إنها، على الأقل، تصرفت بتعقل هذا المساء إذ ارتدت شيئاً يمكن رؤيته بسهولة. ولو أن كلمة (بتعقل) هذه قد لا تكون مرت في ذهن ماكسيمليان غرانت بالنسبة لأي شيء يتعلق بها، فقد كانت تعلم الآن فكرته عنها بعكس خالتها ميلي التي...

أجابها وقد تبدلت لهجته الآن إلى السخرية الجافة: «آه، نعم. إنك هنا لأجل ذلك العمل.»

تساءلت، عندما سقطت يدها إلى جانبها بخيبة إذ لم يمد يده لمصافحتها، عما إذا كان عليها أن تقول الوداع لذلك العمل، والمبلغ الذي ستقبضه من ورائه، فقد كانت في حاجة ماسة إلى ذلك المبلغ. وفكرت في ما إذا كان سيعوضها عن أجرة القطار التي دفعتها حين قدومها إلى هنا للالتحاق بالعمل عنده، فلم تكن حاجتها لتسمح لها بالتفكير في الكرامة. ولكن الشك أدركها في إمكانية ذلك وهي ترى نظرة الاستخفاف في عينيه.

أجابته: «هذا صحيح. وقد جئت بعد الظهر إلى القرية بالقطار خوفاً من التأخر عن الموعد.»

رفع حاجبيه الداكنين بسخرية وهو يقول ببطء: «هذه بداية طيبة بالتأكيد. وهي تدل على منتهى الدقة في المحافظة على المواعيد.»

شعرت بوجهها يلتهب بسبب سخريته هذه. وقالت وهي تهز كتفيها: «أحببت أن أمضي بعض الوقت مع خالتي قبل أن أشغل وقتي مع جينيفر طيلة الأسبوع القادم.» وتمنت، وهي ترى السخرية تزداد على ملامحه أثناء قولها هذا، لو لم تقل شيئاً.

تمتم قائلاً: «أحقاً؟» كان يبدو عليه التحدي وقد ارتدى بذلة عمل أنيقة التفصيل، وقميصاً ابيض اللون، وكان يضع ربطة عنق إذ أنه لا يبدو معتاداً على التهاون في أناقته خاصة وأن هذا النهار كان نهار عمل. ولا بد أن ربطة عنقه كانت حريرية ثمينة كما خمنت صوفي. ذلك أن امبراطورية ماكسيميليان غرانت التجارية قد جعلته مليونيراً منذ زمن طويل.

تابع: «وهل أمضيتما، أنتما الاثنتين، مساء ممتعاً تتحدثان فيه عن الأيام القديمة الحلوة التي مضت؟» وكانت لهجته الآن قد تغيرت ليحل الاستمتاع فيها مكان السخرية... حسناً، فليستمتع كما يشاء، لقد تأكدت الآن من أنه عرفها حقاً.

عبست حائرة. ما دام يعلم بالذي حصل، لماذا لم يخبر خالتها به إذن؟ كانت صوفي متأكدة من أنه لم يفعل ذلك رغبة منه في تجنيبها تعنيف خالتها إذا ما علمت هذه أنها سبق وقابلت مخدومها في ظروف مثل تلك التي حدثت والتي ستستاء كثيراً لو عرفت بها.

أجابت خالتها عنها قائلة ببراءة: «لقد أمضينا طيلة بعد الظهر في تبادل أخبار الأسرة.» وكان السرور يبدو على خالتها، وهي تقول هذا، وذلك لما لمسته من إلفة بدت لها بين الاثنين، ذلك أنها هي التي كانت قد زكت صوفي عنده لتكون مرافقة لابنته وستستاء جداً في ما لو وجدها غير مناسبة.

أدركت صوفي، وهي تئن في أعماقها، أنها غير مناسبة وهذا أقل ما يمكن أن يفكر فيه عنها، وكل ما كانت ترجوه هو أن لا يخبر خالتها بالحقيقة. تابعت خالتها تقول بحنان: «لقد أمضت صوفي المساء مع صديقة لها كانت قد عرفتها منذ الطفولة عندما كانت تجيء إلى هنا أثناء العطل المدرسية.»

أجابها وهو ينظر إلى صوفي بعينين ضيقتين: «حقاً؟» وتابع موجهاً حديثه إلى صوفي: «يمكنك أن تحضري الصينية إلى مكتبي حيث يمكننا أن نتحدث في الأمر.»

كانت السخرية قد اختفت من صوته الآن لتحل مكانها لهجة آمرة مسيطرة. وتابع يقول لخالتها: «أضيفي فنجاناً آخر، من فضلك، يا سيدة كرين.»

فكرت صوفي وهي تنظر إلى خالتها التي كانت تضيف فنجاناً آخر إلى الصينية، في هذا الوقت الذي يختاره للمقابلة والساعة لم تتعد بعد الواحدة والنصف من منتصف الليل. ولكن، بالرغم من شعورها بالارهاق من سفر الطريق إلى هذه القرية، ثم معاودة الخروج في المساء الذي مكثت فيه إلى ساعة متأخرة، لم تكن في وضع يمكنها فيه من المناقشة وهكذا حملت الصينية لكي تتبعه بها.

عقد حاجبيه وهو يسألها: «هل أنت جائعة؟ أم أن هذا سؤالاً أحمق يوجه إلى تلميذة؟ يبدو عليك بأنه من الممكن أن تبقي كذلك أبداً.»

استدارت صوفي إلى خالتها عابسة. صحيح أنها كانت تزاول دراسة جامعية ولكنها لم تكن تعتبر تلميذة. ورأت هذه حيرتها، فهزت رأسها نفياً، وشعرت صوفي بالضيق بعد إذ أدركت أن خالتها لم تخبر مخدومها كل شيء عنها. إنها لا تستطيع أن توجه إليها اللوم، ولكن هذا يضاعف من وضعها المحرج بالنسبة إلى ماكسيميليان غرانت.

أجابته وهي غائبة الذهن تتساءل بانفعال عما عسى أن تكون خالتها قد أخبرت مخدومها عنها: «لقد سبق وتناولت الطعام. شكراً.»

قال وهو يخطو خارج الغرفة: «سندويتش واحد إذن، لأجلي يا سيدة كرين.»

ألقت صوفي نظرة خاطفة نحو خالتها قبل أن تتبعه

بالصينية مسرعة، ليهتز إبريق القهوة لسرعتها هذه مما أجبرها على التباطؤ في سيرها، محاذرة أن تسقط الصينية من يدها فيتناثر ما عليها فوق السجادة الرائعة الجمال التي تكسو أرض الممر.

عندما كانت صوفي تمضي إجازتها المدرسية، في حداثتها، هنا، كان التلف قد ابتدأ يدب في هذا البيت الكبير. ولما كان آل غراي قد ورثوه، فإن تكاليف صيانته كانت ترهق كاهلهم، هذا إلى ما تكلفهم تنشئة ثلاثة أولاد. واستمرت حالة المنزل في الانحدار إلى أن لم يعد في وسع الزوجين الاحتمال.

لكن هذا المنزل الواسع الأرجاء، لم يعد كذلك. إذ سرعان ما استدعي مهندس الديكور، حالما أصبح، المنزل هذا، مملوكاً لماكسيميليان غرانت. وامتلأ المكان بالعمال من جميع الفئات، لتشكو خالتها من أنها لم تقم، لمدة شهرين كاملين، سوى بعمل الشاي والقهوة للعمال وتنظيف الأمكنة التي كانوا يعملون فيها، هذا عدا أصوات الطرق والجر ورائحة الدهان في كل مكان. وعندما وصلت اليوم صوفي إلى هذا البيت، وجدت أن النتيجة تستحق كل هذه المشقة.

كانت كل سلالم الطابق الأرضي قد كسيت بنفس نوع تلك السجادة الحمراء المذهبة السميكة. وكان الأثاث كله قديم الطراز، والستائر مخملية حمراء داكنة تغطي النوافذ الواسعة والثريات تتألق متدلية من السقوف العالية. أما في الطابق الثاني، فقد أضيف نوع من الذوق الشخصي. إذ كانت ستائر غرفة جينيفر من الحرير والدانتيل بلون العاج. وكانت غرفة سيد البيت اكثر بساطة، يسودها اللون الأزرق

الباهت. وكل غرف الضيوف، وهي ستة، كانت مزخرفة بلونين متلائمين تماماً. وكانت قد خصصت لصوفي غرفة مؤقتة قرب غرفة خالتها في الطابق الأسفل إلى أن يتقرر قبولها في ذلك العمل، وعند ذلك، كما أخبرتها خالتها، ستنتقل إلى واحدة من غرف الضيوف تكون قريبة من غرفة جينيفر.

الآن، ها هي ذي صوفي تدرك عدم احتمال ذلك اطلاقاً بعد الذي حدث.

لكنها لم تشاهد في مكتب ماكسيميليان غرانت، عندما أرتها إياه خالتها لأول مرة بعد ذهاب آل غراي، سوى اللون البني الصارم مع العاجي والأثاث الثقيل المصنوع من خشب السنديان مما لم يدهشها، فقد كان هذا ما تنتظر أن يحيط ماكسيميليان غرانت نفسه به حين يعمل.

ربما لم يكن من السوء كما كانت تعتقد حين لم يشأ أن يخبر خالتها عن مقابلته لها في الطريق المنعزل في ذلك الوقت المتأخر.

أفسح مجالاً للصينية على مكتبه بكل هدوء، لتضعها صوفي وهي تتنهد بارتياح بعد أن كانت في منتهى الخوف من أن تسقطها من بين يديها فتجعل، بذلك، من نفسها أضحوكة.

تساءلت عما إذا كان عليها أن تنسحب الآن بأدب. ولكن، ربما كان ثمة حظ، ولو كان ضئيلاً، في قبولها للوظيفة... أم أن هذا الرجل سيرفضها بكل رقة؟ فتكون رقته شيئاً غير عادي بالنسبة لما هو معروف عن هذا الرجل الفظ.

كان نجاح ماكسيميليان غرانت في الأعمال، أسطورياً.

فقد كان يهتم بكل شيء تقريباً، من شركات الأفلام، بما فيها الاستديوهات، إلى الخطوط الجوية باستمرار. ولو كانت تحب الرهان على الخيل، فقد كانت لتراهن حتماً على أحد خيوله، ولكنها لم تفعل وبقيت خيوله تفوز في ميادين السباق دون نقودها.

لم تكن حياته الشخصية بأقل نجاحاً. وربما كان في عدم توفيقها في الحصول على دور رئيسي في أحد الأفلام التي شارك هو في إنتاجها، ما دعاها إلى مثل هذا النقد اللاذع له. ولكن، في الواقع، ان ماكسيميليان غرانت لم يبدر منه أي ميل إلى اتخاذ زوجة أخرى. وهكذا، استقر في ذهن صوفي أن مثل هذه السمعة الأنانية القاسية لرجل، سواء على مستوى الأعمال أم حياته الشخصية، لا بد أن ترتكز على أساس. أو كما يقول المثل (لا دخان من غير نار).

«هل تريدين أن تقومي أنت بذلك؟» جاءها صوته الساخر هذا أثناء استغراقها في التفكير في أموره الشخصية مما جعلها تجفل وقد تضرج وجهها، وتملكها شبه خوف من أن يكون قد قرأ أفكارها... ولكنها لما رأت ناظريه مركزة على صينية القهوة، عادت تفكر في أنه لو في استطاعته قراءة الأفكار حقاً، إذن لعلم أن ليس من الحكمة السخرية منها بهذه الطريقة.

سألته برزانة: «أتريد سكراً وقشدة مع القهوة؟» وبدا أن فمه قد اختلج حين رآها تحدثه بشكل رسمي متكلف، فهز رأسه رافضاً وهو يقول: «أريد القهوة السوداء في هذا الوقت من الليل.»

لم يظهر عليه أنه بحاجة إلى أي شيء لينبهه. كما لو أنه

استيقظ لتوه من نوم طويل منعش وذلك في الوقت الذي كانت هي تشعر فيه بالارهاق البالغ، وكان هذا خطأ من ناحيتها إذ كانت تشعر أن المفروض فيها، كعاملة عنده، أن تظهر بمنتهى النشاط.

قال: «إذن، فقد احضرك أخيراً، إلى البيت؟»

تنفست صوفي بحدة لدى هذا السؤال الذي لا شك أنه قصد به أن يعيدها إلى الواقع الذي كان بينهما بعد أن أحس بنيتها في أن تتخذ تجاهه نفس الموقف المؤدب المصطنع الذي يكون عادة بين غريبين لم يسبق لهما اللقاء، إنه يريد أن يجعلها تعلم أنه غير مصمم على نسيان تلك الحادثة، بصرف النظر عن تصرفه المعاكس لهذا أمام خالتها.

ناولته صوفي فنجان القهوة بيد ترتجف قليلاً، ربما لن تشتغل عنده مطلقاً بعد كل هذا. فهي تريد أن تكون مرتاحة مسرورة في عملها.

«إنني أشكرك لأنك لم تخبر خالتي عما حدث.» قالت ذلك، وهي تتهالك على كرسي أمامه.

لم يحاول أن يبدأ برشف قهوته التي وضعتها أمامه على المكتب. وضاقت عيناه وهو ينظر إليها قائلاً بخشونة: «إنني لم أفعل ذلك لأجنبك الاحراج، بل أردت أن اجنب خالتك الاستياء الشديد الذي لا بد سيصيبها لو عرفت بالوضع المزري الذي أوقعت نفسك فيه، إذ يبدو عليها أنها شديدة الولع بك.»

كأنه كان يعني بقوله هذا أنه لا يدري السبب في هذا الولع بفتاة مثلها لا تستحق ذلك.

أجابته: «خذ الناحية الايجابية من الأمر، فلو لم أتسبب في أن تبقى خالتي مستيقظة تنتظرني لأني لا أملك مفتاحاً، لما أمكنها أن تصنع لك السندويتش والقهوة.»

فرد عليها بخشونة وهو ينظر إليها بعينين باردتين: «إنني أكثر من قادر على صنع فنجان قهوة وسندويتش.»

طبعاً كان يجب عليها أن تخمن أنه أكثر من قادر على القيام بأشياء كثيرة لأجل نفسه، وما كان لها أن ترد عليه بذلك الجواب الوقح. وهي كذلك، لم تكن لترد عليه لو لم يكن بمثل هذه الطبيعة المسيطرة اللعينة والعجرفة التي تجعله ينزل بنظراته إليها وكأنها عيّنة غير عادية، أو ربما كانت هي حساسة بشكل مفرط إذ أنه، على كل حال، له الحق في أن يعرف كل شيء عن سلوكها.

استطرد يقول متحدياً قبل أن ترد عليه: «أو ربما كنت صنعت أنت ذلك لأجلي عندما تأتين في النهاية.»

أجفلت للغضب الذي بدا في صوته. وكأنه والد قاس يؤنب ولداً له أخطأ في أمر ما. ومع أنها لا يمكن أن تتصور رجلاً أقل تسامحاً من أبيها الرائع، فقد كانت تشك في أن ماكسيميليان غرانت قد يرحب في أن تكون هي ابنته، وإنما كان هذا مجرد تعنيف من مخدوم متوقع لطالب وظيفة غير مناسب، ذلك أنها لم تكن لتناسب ماكسيميليان غرانت مطلقاً.

بللت شفتيها بعصبية قائلة: «إنك..» وهنا، اختارت خالتها هذه اللحظة لتدخل إلى الغرفة بعد قرع خفيف على الباب، وهي تقول: «آسفة لتأخري في عمل السندويتش يا سيد غرانت.» وابتسمت للاثنين دون أن تنتبه إلى ذلك التوتر

الخفيف السائد في الجو. واستطردت تقول: «لقد صنعت لك نوعاً من المايونيز الذي يتماشى معه.»

ابتسم ماكسيميليان غرانت لخالة صوفي وهو يقول: «ما كان لك أن تتعبي نفسك يا سيدة كرين.» ومع أن صوفي كانت ما تزال ترى شرارة الغضب التي كانت موجهة نحوها من عينيه، كانت عينا هذا الرجل تذكرانها بجبل الجليد. وتابع محدثاً خالتها: «يجب عليك، في الحقيقة، أن تذهبي إلى الفراش يا سيدة كرين.» ولطفت ابتسامته من حدة هذا الأمر الذي ألقاه إليها، ليصبح نوعاً من الارشاد الذي يتوقع منها أن تطيع.

مع هذا، أدركت صوفي أن ذلك كان أمراً وعلى خالتها أن تطيعه. ولم يكن ثمة طريقة تجعل خالتها تذهب إلى الفراش صاغرة قبل أن تعرف نتيجة هذه المقابلة بين مخدومها وابنة أختها.

تابع وكأنه كان يدرك جيداً سبب ترددها هذا: «إن بإمكاننا، أنا وصوفي، أن نعيد هذه الصينية إلى المطبخ عندما ننتهي.»

قالت خالتها ميلي بلهجة جافة وهي تخرج مبدية عدم رضاها: «حسن جداً.»

أجفلت صوفي فهي تعرف تلك النظرة جيداً. ولكن لم يبد أنها ضايقت ماكسيميليان غرانت وهو ينظر، عبر المكتبة، إلى صوفي رافعاً حاجبيه، ولماذا تضايقه؟ إن كل ما في استطاعة خالتها أن تضره به، هو أن تقدم إليه وجبة غير لذيذة. وبما أن خالتها كانت جداً مزهوة بطهيها، فإن ذلك كان بعيد الاحتمال.

قال ماكسيميليان غرانت يحثها بجفاء: «كنت تقولين...؟»

ماذا كانت تقول؟ آه، نعم... «كنت فقط أريد أن أوضح الأمر عما سبق وحدث هذا المساء، ولكنني أدرك الآن أن ليس ثمة أية فائدة من هذا، أليس كذلك؟»

تنهدت وهي تشعر أن الأوان ربما قد فات لكي تحاول تغيير فكرته عنها.

تساءلت عما إذا كان من الأفضل أن تخبر هذا الرجل أن السبب الذي دعاها إلى أن تطلب من برايان التوقف وإنزالها من السيارة، ليس هو الدفاع عن كرامتها، بل عن كرامته هو، ماكسيميليان غرانت؟

الفصل الثالث

حسناً، ليس كرامته بالتحديد، ولكن شيئاً له أهمية بالغة عنده، ألا وهو خصوصياته!

لقد سرها رؤية برايان عندما انضم إليهما، هي وشقيقته آلي، ليتناول معهما شيئاً من المرطبات، لسوء الحظ، أن برايان يعمل الآن في اكبر صحيفة محلية في هذه المنطقة. وقد علمت وهي في سيارته، أنه طموح إلى الانتقال من صحيفته الاقليمية الضيقة الأفق، إلى الأضواء الساطعة في شارع الصحافة فليت ستريت في لندن، أو في أي مكان توجد فيه الصحف الوطنية الكبرى هذه الأيام... وهو يريد أن يتوصل إلى غرضه هذا بعرض الحياة الخاصة لماكسيميليان غرانت. وهي فكرة عرضت له حين علم بأن صوفي ستعمل عنده، فرآها فرصة سانحة لاستغلالها في مده بالمعلومات عن مخدومها ذاك.

في ذلك الوقت، وعدا عما تعرفه من أن ماكسيميليان غرانت عنده فتاة في السادسة عشرة من عمرها وهي في الاجازة الأسبوعية الآن، فهي لا تعلم شيئاً عن حياته الخاصة. حتى ولو كانت تعلم، فما كانت بكل تأكيد، لتخبر برايان فيكتب قصصاً مفزعة لتلك الصحف التي تهتم بنشر الفضائح والاسرار الشخصية. وقد أدرك صوفي الرعب من مجرد تفكيرها في أن برايان يتصور أنها قد تفعل ذلك.

WWW.REWITY.COM

قال ماكسيميليان غرانت فجأة: «لقد حدث تغيير في الخطة.»

تجهم وجه صوفي وهي تقول: «هذا ما فكرت فيه، هل تصنع معي معروفاً فتتلطف في إخبار خالتي عن أمري وعن سبب عدم رغبتك في استخدامي؟ ربما كانت هي مدبرة منزلك ولكنها أخت أمي كذلك، ثم إن...»

قام من مكانه ثم جلس على حافة المكتب وقال: «لا أظن أنك فهمت قصدي.»

قالت وهي تنظر إليه باستخفاف غير مصدقة: «كلا؟»

أجاب بنفاد صبر: «كلا. في الواقع أن جينيفر لن تأتي في العطلة إلى هنا كما كان مقرراً، و...»

قالت: «إنني اعلم أنك تقول هذا مراعاة لشعوري فقط. ولكنني...» وهزت رأسها بأسى.

قال: «وما هو السبب الذي يدفعني إلى مراعاة شعورك، يا آنسة غوردون؟»

شعرت بوجهها يتضرج عندما رأته يحدق فيها بنظرات ساخرة مشفقة جعلتها تشعر وكأنها ابنة له.

تابع يقول باستخفاف: «خصوصاً إذا كان عليّ أن أكذب لذلك. إنني أتعامل مع الحقائق، يا آنسة غوردون...»

قالت برقة: «صوفي. أدعني باسمي صوفي.»

أومأ برأسه موافقاً على هذا وهو يتابع: «حسناً، الحقيقة يا صوفي هي أن جينيفر ستذهب لتمكث مع خالتها أثناء العطلة هذه بدلاً من الحضور إلى هنا. وإنني آسف لتكبدك هذا الانزعاج في القدوم إلى هنا. وإن يكن كما سبق وقلت، هذا منحك فرصة لرؤية خالتك مرة أخرى. ثم طبعاً،

برايان. أليس كذلك؟» ونطق بالجملة الأخيرة ببطء ساخر.

تصنعت التحدث بمرح لم تكن تشعر به: «يجب أن أقول... لم يحدث قط من قبل أن صرفت من الخدمة قبل أن أبدأ العمل.»

لوى ماكسيميليان بشفتيه وهو يقول: «إن أرباب العمل، عادة، ينتظرون مدة اطول من هذه قبل صرفك من الخدمة.»

أضاف ببطء وجفاء وهو يرى إمارات السخط على وجهها: «كانت تلك مشكلتك وليست مشكلتي. إلى جانب هذا، فهمت من خالتك أن ليس لديك مهنة ثابتة تعيشين منها... إذ أنك حاولت مرة القيام بعمل مكتبي، ثم عاملة هاتف، وبائعة في متجر...»

قاطعته صوفي بسرعة كي لا يستمر في قراءة هذه القائمة الطويلة، إذ، لا شك أن خالتها حذفت من تلك القائمة أعمالاً لم يكن ذكرها مناسباً تماماً لتزكيتها لتكون مرافقة لابنته، مثل عمل ناقلة لمراسلات بين دوائر وشركات وذلك على الدراجة النارية، وأمثال هذا العمل. قاطعته قائلة بسرعة: «حسناً، حسناً.»

دفنت أنفها في فنجان القهوة لكي لا تكشف له عينيها عما تحاول أن تحتفظ به لنفسها، لأنها أدركت منذ قابلت هذا الرجل، أنه من الفطنة والدهاء بحيث يدرك بالضبط نوع الأعمال التي لم تخبره خالتها بها.

لكنه كان مخطئاً كلياً في فكرته عما تريد أن تقوم به في حياتها. فهي تعرف تماماً أية مهنة تريد أن تتخذها، إنها، فقط، تأخذ منها وقتاً أطول من غيرها لكي تستطيع القيام بها. ولكنها ستصل في النهاية حتى وإن اضطرت للقيام بأعمال أخرى متفرقة مثل ذلك.

وقف الآن ينهي المحادثة على ما يبدو، وهو يعود إلى كرسيه خلف المكتب ليبدأ بأكل السندويتش الذي أحضرته له خالتها، وهو يقول: «إن ما تكلفته للقدوم إلى هنا، سيعاد إليك بالطبع.» هذه اللحظة كانت الخيبة المرة لفقدان عملها تتملكها. قالت وهي تقف: «كلا، شكراً. أظن... أظنني سأذهب إلى الفراش الآن. إنك لا تمانع في أن أبقى في بيتك إلى الصباح، أليس كذلك؟»

عادت نظراته الباردة إلى عينيه وهو يقول غاضباً من سؤالها هذا: «لا تكوني حمقاء. وإذا شاءت خالتك أن تبقيك عندها عدة أيام أخرى، فلا مانع لدي.»

آه، يا لسوء حظها... عليهامواجهة خالتها الآن، ومهما قالت صوفي، فإن خالتها لن تقتنع بأن صوفي لم تقل أو تفعل شيئاً جعل ماكسيميليان غرانت يغير رأيه في توظيفها عنده، وأن عدم رضاه عنها لا بد سينعكس عليها هي لأنها هي التي اقترحت عليه توظيفها. بل أن أمها هي التي وضعت هذه الفكرة في ذهن أختها، عندما قالت هذه، عرضاً، ان جينيفر ستأتي إلى المنزل في عطلتها. وفي الواقع أن صوفي لم تقتنع تماماً، رغم تأكيد هذا الرجل لها، بأن تغيير رأيه في توظيفها، لم يكن من وحي رؤيته لها بجانب الطريق في هذا الوقت من الليل.

قالت له: «أظن من الأفضل ذهابي غداً.» ذلك أنها لم تجد فائدة من تحمل نظرات خالتها المتهمة إليها أكثر مما يلزم.

أجاب وهو يهز كتفيه دون اكتراث، وعيناه تجولان في صحيفة أمامه على المكتب: «كما تشائين.»

تساءلت صوفي إذا كان عنده فكرة عما سببه فقدانها لهذا

العمل، من خسارة لها، حتى ولو أعاد إليها تكاليف السفر، إن المبلغ الذي كانت ستقبضه هذا الأسبوع لا يكوّن قطرة في بحر هذا الرجل. ولكنه بالنسبة إليها...

خاطبت نفسها قائلة، إنسي هذا يا صوفي وامشي في طريقك ولا تنظري إلى الخلف. لا تنظري مطلقاً إلى الخلف. فهذه هي أفضل طريقة.

لم يبد على ماكسيميليان غرانت أنه لاحظ خروجها من الغرفة، فقد كان مستغرقاً في قراءة صحيفته وأكل السندويتش في نفس الوقت. وربما كان، في الواقع، قد سبق ونسخ صوفي غوردون من ذهنه كلياً.

لكن الأمر لم يكن كذلك مع خالتها ميلي، فقد كانت بانتظارها في المطبخ، كما كانت صوفي تعلم. ولكنها ما لبثت أن شعرت بالراحة عندما اخبرت خالتها بأن جينيفر سيرسلها أبوها إلى خالتها بدلاً من القدوم إلى هنا كما كان مخططاً، إذ أن انزعاج خالتها من عدم المراعاة لشعورها الذي أظهره رب البيت لها، غطى على رغبتها السابقة في تعنيفها وتوجيه اللوم لها. وقالت: «أحقاً؟ حسناً.» ووقفت تغسل فناجين القهوة وتمسح الخوان وهي تتابع: «ولكنني أظن السبب في ذلك هو خالتها، تلك السيدة الصغيرة المدللة التي لم أر لها مثيلاً. إن جينيفر الصغيرة لن ينفعها المكوث مع سيليا تلك.» وهزت رأسها وكأنها تتنبأ بالأسوأ.

لم تعرف صوفي بالضبط ما إذا كانت جينيفر أم خالتها هي السيدة الصغيرة المدللة. وغمرها شعور بالراحة لكف خالتها لسانها عنها، ومنعها من ملاحقة هذا الموضوع، واعتذرت لتذهب إلى فراشها قائلة بأنها ستسافر في صباح

الغد. وبدا شعور الذنب في عيني خالتها وهي تقول: «عليك أن تسافري بالطبع. وأنا آسفة جداً لخيبة أملك بعد كل ما تكبدته من مشاق.»

هزت صوفي كتفيها قائلة: «لقد قال لي السيد غرانت انه سيدفع لي تكاليف سفري.»

قاطعتها خالتها: «هذا أقل ما يتوجب عليه.» وبدا عليها جلياً أنها ما زالت مشمئزة مما حدث لصوفي.

قالت صوفي عابسة: «نعم. ها أنذا ذاهبة إلى فراشي.»

أومأت خالتها وقد بدا التساهل في عينيها: «يمكنك المكوث في فراشك فترة عند الصباح، إذا شئت. فلست على عجلة من أمرك للسفر.»

جعلت هذه الرقة والعطف اللتان بدتا من خالتها واللتان كانت صوفي تدرك أنها لا تستحقهما، تحس بنفس ما كانت ستشعر به لو أنها عنفتها ولامتها كما كانت تنتظر.

لكنها، وحال وصولها إلى غرفتها، وجدت نفسها أنها ليست من التعب بحيث تذهب إلى فراشها، فابتدأت تفكر في ما عليها أن تفعل بالنسبة للأسبوع القادم. ذلك أن التظاهر بالغنى لا يدفع الحساب ولا يملأ المعدة الجائعة، مهما بدا في ذلك من عفة وكرامة. وهكذا، عليها أن تجد عملاً. لا بد من ذلك وهي لن تفشل في هذا. ولكن، حتى ذلك الحين...

ربما إذا حاولت القراءة يتسلل النوم إلى عينيها، فقد كانت هذه عادتها في ما مضى ولن تدهش إذا هي نجحت في ذلك الآن أيضاً، ولكن الكتب التي احضرتها معها، لم تكن تصلح للقراءة الخفيفة، فقد كانت كلما حاولت عدم التفكير

في شراء الكتب، وجدت الكتب في تلك المكتبة الواسعة التي زارتها صباح هذا اليوم، تجذبها بسحرها. وفي الحقيقة، كان أول شيء صممت على عمله عندما تصبح مرافقة لجينيفر، هو أن تستأذن من أبيها في إلقاء نظرة على كتبه الثمينة وقراءة بعض منها على أن توليها عنايتها التامة وحذرها. ربما لن يعارض ماكسيميليان غرانت في ما لو حاولت أن تلقي نظرة على مكتبته الآن، ثم أنها لن تحصل لها مثل هذه الفرصة، بعد ذلك أبداً.

عندما غامرت بالخروج من غرفتها، كان المنزل غارقاً في الظلام. ويبدو أن خالتها وماكسيميليان غرانت لا بد أنهما ذهبا إلى فراشهما الآن. وبدا سقف الممر المؤدي إلى القاعة عالياً مخيفاً في ظلمة الليل ما جعل صوفي تعاود التفكير في ما إذا كان من الضروري إلقاء تلك النظرة على المكتبة.

لكنها، عندما فتحت باب المكتبة لتعبق في أنفها رائحة كل تلك الكتب، تأكدت من وجوب الدخول وإلقاء تلك النظرة. وضغطت زراً بجانب الباب لينبعث الضوء من مصباح طويل بجانب مقعد من الجلد الأخضر موجود بجانب المدفأة، وإلى الجانب الآخر كان يوجد زهرية فيها أزهار جافة في هذا الوقت من السنة.

كانت كل الكتب الراقية المجلدة تجليداً فاخراً موجودة أمام ناظريها كما تصورتها تماماً. فكان سرورها بالغاً ولو بلمسها فقط.

وكان أول كتاب سحبته هو جين إير وتبعاً لما سبق وفكرت به هذا المساء، أدركت أنه هو الكتاب الذي ينبغي

عليها قراءته ليساعدها على النوم. وأمسكت أصابعها بلهفة بالكتاب وهي تسحبه من على الرف.

لكن الكتاب سقط من يدها على الأرض المكسوة بالسجاد وقد شعرت بشيء يشدها من الخلف، لتصرخ مذعورة عندما لويت ذراعها وراء ظهرها ثم اديرت على عقبيها بمهارة لم تكد تجد معها وقتاً تتنفس فيه.

عندما وجدت نفسها أمام ماكسيميليان غرانت وعيناها المتسعتان المذعورتان مشدودتان إلى عينيه الثائرتين الغاضبتين، شعرت بأنها لن تستطيع التنفس بعد ذلك أبداً، وقال لها متهماً، باشمئزاز دون أن يحاول تركها: «أنت!»

ازداد عند صوفي الشعور باليأس لعمله هذا ولم تعرف إلى أي حد سيبقى بإمكانها الاستمرار دون تنفس بهذا الشكل.

نظرت إليه بحذر وهي تقول: «كنت أبحث عن كتاب أقرأه و...» وهزت كتفيها وهي تتساءل عن السبب في أن ينتابها مثل هذا الشعور القوي بأنه لن يصدقها. ولكن هذه هي المكتبة، فماذا بإمكانه أن يظن أنها كانت تفعل هنا غير ذلك؟

أخذ يحدق فيها دون أن تطرف عيناه وهو يقول: «في مثل هذا الوقت من الصباح؟»

إنه إذن، لم يصدقها، وتابعت هازة كتفيها: «لم استطع أن أنام بعد حديثنا ذاك. أعني، علمت أنني لن استطيع ذلك حتى ولو ذهبت إلى الفراش.» كانت تتحدث بسرعة الآن بعد إذ أخذ ينظر بشكل خاص إلى التنورة والقميص اللذين كانت ماتزال ترتديهما، مما كان يوضح أنها لم تذهب إلى

الفراش لتحاول النوم. وتابعت عابسة: «ثمة أشياء كثيرة في عقلي.»

طوى ذراعيه على صدره وهو يقول: «إن ما يجعلك تشعرين بذلك هو الشعور بالذنب.»

فتمتمت ساخطة: «الشعور بالذنب؟ اسمع الآن، ليس عندي أي شيء يولد عندي الشعور بهذا.» وحدقت فيه غاضبة لهذه الورطة التي وقعت فيها. إذا كان لايزال يلاحقها بشكوكه لرؤيتها تسير في الطرق المظلمة عند منتصف الليل.

خفضت نظراتها متجنبة عينيه وهي تقول مصرة بعناد: «حسناً، ليس عندي، بالتأكيد، ما يجعلني أشعر بالذنب.» إنها طبعاً، لم تكن تنوي أن تسرق كتاباً من مكتبته الثمينة إذا كان هذا ما يقلقه، إنها لا تستطيع أن تتصرف بطريقة صحيحة في وجود هذا الرجل. وقالت ترد بنظراتها على التحدي في عينيه: «إنني أعلم أنه كان علي أن اطلب إذناً لدخول المكتبة، ولكن تأخر الوقت، هذا إلى نيتي في إعادة الكتاب إلى مكانه على الرف في الصباح قبل سفري...» ونظرت إليه وهو ينحني ليلتقط الكتاب من على السجادة عند اقدامهما، وهي تتابع: «لهذا لم أظن أن ذلك ضروري. ومن الواضح أنني كنت مخطئة.»

قلب الكتاب بين يديه المستطيلتين النحيفتين، اللتين توحيان مع ذلك بالقوة الفولاذية. ولقد علمت صوفي إلى أي حد تبلغ قوتهما، فهي مازالت تشعر بتلك الأصابع الطويلة على معصمها.

لوى فمه ساخراً وهو يقرأ اسم الكتاب المطبوع بماء

الذهب قائلاً: «(جين إير). دعيني أخمّن. هل روشستر بطل هذه الرواية الثري المتكبر، هو بطلك؟»

تمنت صوفي لو تصفعه على وجهه، في تلك اللحظة، لتلك السخرية المهينة في صوته. وشبكت يديها خلف ظهرها تمنعهما من ذلك. وهي تشعر أنها تفضل ماكسيميليان غرانت متشككاً على أن يكون ساخراً. وقالت: «من حسن الحظ أن لدى روشستر شيئاً غير الثراء قرّبه من جين كما أنه يتمتع بحسن الفكاهة.»

لوى ماكسيميليان فمه وقال: «وأنت تظنين أنني لا أملك هذا؟»

ضحك لردها الحاد، نعم لقد ضحك حقاً، وهو يضع الكتاب على الطاولة قائلاً: «ربما من المؤسف ألاّ تبقي هنا، بعد كل هذا يا صوفي غوردون. يبدو انني في حاجة إلى من يذكرني كيف أضحك أثناء بعض الظروف.»

عندما استوعبت ما قاله في ما بعد، فكرت كم يكون محزناً أن يحتاج إلى من يذكره كيف يضحك.

أي نوع من الحياة يحيا هذا الانسان الذي ينبغي أن يذكر بذلك. كانت تعرف أنه أرمل كما أخبرتها خالتها ولكنها تتذكر أن زوجته قد ماتت منذ ثلاث سنوات. فمن المؤكد إذن، أن يدخل حياته هذه الأثناء، حب آخر. حب لشخص يشاركه الضحك. وفكرت صوفي في أنه من غير المعقول أن يبقى رجلاً في التاسعة والثلاثين، صحيح الجسم، عازباً منذ وفاة زوجته، خاصة إذا اضفنا إلى ذلك تلك الوسامة التي يتميز بها ماكسيميليان غرانت.

هنالك ابنته جينيفر البالغة السادسة عشرة من العمر...

ألا تبعث في حياته الضحك والسعادة؟ ولشدة المحبة التي تربط صوفي بوالديها، لم تستطع أن تتصور كيف أن أباً وابنته يعيشان بمفردهما لا تزداد المحبة بينهما بسبب ما فقداه. ولكن، ربما كانت ثروة ماكسيميليان غرانت هي التي تفصل بينه وبين ابنته. ولا بد أن الثروة في ظروف كهذه بالنسبة إلى فتاة دون أم، ستكون مصدر تدليل وإفساد... وتمتم ماكسيمليان نادماً، وقد ضاقت عيناه وهو يتأمل تعاقب المشاعر على ملامحها: «يبدو الآن أنني سلبت الضحك من حياتك أنت أيضاً.»

أسرعت تطمئنه قائلة: «آه، كلا، كنت أفكر فقط.» كانت لهجتها واهية، راجية ألا يسألها عن ماهية افكارها. وتساءلت عما إذا كان الآخرون يشعرون بالأسف نحو هذا الرجل، وعما إذا كان يشكرهم لو علم بهذا.

قال ببطء: «لقد وجدت أنها هواية خطرة. أظن أن الوقت قد حان لذهابنا للنوم. ألا تظنين ذلك يا جين؟»

تناولت الكتاب من على الطاولة بسرعة، وأسرعت صوفي خارجة من المكتبة قبل أن تتأصل جذور شكوك عن حقيقة ذلك، في نفسها وتنمو.

كان هذا شعوراً بالغ الغرابة، ثم، عندما بدا أنها لم تنم سوى دقائق معدودات منذ غلبها النوم في النهاية.

الفصل الرابع

كانت صوفي غارقة في حلم بالغ الغرابة... يتضمن نساء سجينات في غرف منفردة على السطوح! ومضت عدة ثوان قبل ان تدرك أنها مستيقظة، وانها ليست وحدها في الغرفة...

كان من الصعوبة معرفة من يكون، وقد غطت النوافذ بالستائر، تاركة الغرفة في شبه ظلام. ولكن، عندما تعودت عيناها الظلام، شاهدت شخصاً واقفاً قرب منضدة الزينة. تباً، إن باستطاعتها ان تسمع خشخشة النقود. إنها نقودها هي قد وضعتها على منضدة الزينة قبل أن تذهب إلى الفراش. وهي كل ما تملك من نقود في هذا العالم.

ربما كان ماكسيميليان قد فكر، الليلة الماضية، انها لصة عندما فاجأها في المكتبة، ولكن يبدو الآن ان ثمة لصاً حقيقياً، ولم تعرف كيف تتصرف.

جاءها صوت أنثوي: «آه، انك مستيقظة إذن، أليس كذلك؟ لقد ظننت أنك ستنامين طيلة النهار.»

لم تعرف صوفي بالضبط، ما الذي جعلها تبدو مستيقظة، ربما حركة لا إرادية أو تغير في نظام تنفسها.

تدفقت أشعة الشمس الباهرة إلى الغرفة. وبقيت صوفي لحظة لا تستطيع ان تميز شيئاً في هذا النور الباهر، وعندما اعتادت نظراتها أشعة الشمس تلك، استطاعت ان ترى ماهية هذا الشخص وشكله.

بدت الفتاة التي رأتها أشبه ما يكون (بأليس في بلاد

العجائب) المذكورة في حكايات الأطفال بشعرها الطويل الذهبي المربوط إلى الخلف بشريط أسود، ووجهها الصبوح وعينيها الزرقاوين وثوبها ذي اللونين الأزرق والأبيض يشدّه إلى جسمها الرشيق حزام أبيض ضيق. وفي الواقع، كان منظرها الطفولي لا يتناسب مع طولها الذي كان يتجاوز طول صوفي.

وقفت الفتاة قرب سرير صوفي تنظر إليها بترفع وهي تقول: «فكرت في المجيء لأرى كيف تبدو تلك المرافقة المدفوعة الأجر.»

حتماً لم تكن هذه الفتاة جذّابة رغم مظهرها. وعندما اقتربت منها، بدت عيناها الزرقاوان الباردتان كالثلج، وكانت الجاذبية التي تشع من قوة شخصية ماكسيميليان غرانت، بعيدة عن ابنته ذات الستة عشر عاماً... نعم ابنته كما استنتجت صوفي.

عبست صوفي وهي تغادر الفراش: «ليس من المفروض ان تكوني هنا.» ذلك أنها أحست بنظرات جينيفر تسجلان كل حركة منها بعين ناقدة.

كان مما يبعث على الارتباك أن ترى شخصاً يصغرها سناً يسلّط عليها مثل هذه النظرات الناقدة. وكان من السهل عليها ان تدرك السبب الذي يجعل ابنة ماكسيميليان غرانت لا تشارك أبيها الضحك والمرح. إذ كانت هذه السيدة الصغيرة جادة أكثر من اللازم.

قالت جينيفر باحتقار: «ان نقودك كلها هناك. لم أكن أريد أن أستولي عليها. كنت فقط أعدّها.» وتقدمت تجلس على حافة الفراش... أو بالأحرى تتهالك عليه، وهي تنظر إلى صوفي نظرة تحدي وتابعت قولها: «هل هذه هي كل ما تملكينه

من نقود؟» ورفعت حاجبيها بطريقة مشابهة لما يفعله أبوها.

ألقت صوفي بناظريها إلى ورقتي الخمسة جنيهات المجعدتين وكومة النقود المعدنية البالغة خمسة وستين بنساً بالضبط، وكانت قد عدتها بدقة في الليلة الماضية. لقد كانت هذه النقود كل ما تملكه في العالم. وهزت كتفيها وهي تجيبها: «في الحقيقة، نعم.»

قالت جينيفر بازدراء: «لا غرابة إذن في أن تقبلي عملاً كمرافقة مدفوعة الأجر لفتاة لا تعرفينها. إن أبي يعطيني مصروفاً اسبوعياً اكثر من هذا المبلغ.»

لم يكن هذا صعب التصديق. ولكن ما كانت هذه السيدة الصغيرة بحاجة إليه فعلاً، هو صفعة.

وردت عليها بنعومة: «ربما كان هذا هو السبب في حاجة أبيك إلى أن يحضر إليك مرافقة مدفوعة الأجر.»

مضت لحظة استوعبت فيها الفتاة الاهانة، لتتسع، بعد ذلك عينيها وهي تنظر إلى صوفي وتقول ساخطة: «عفواً.»

ابتسمت لها صوفي محاولة أن تمحو أي شك، متعمدة عدم فهمها، وهي تقول: «لا بأس في ذلك، إنني متأكدة من أنك لم تقصدي أن تكوني وقحة.»

وقفت الفتاة وقد تضرج وجهها وتقبضت أصابعها على جبينها وهي تقول: «حسناً. إنك مخطئة في هذا، لأنني قصدت فعلاً أن أكون جداً وقحة.»

توقعت صوفي، أن الفتاة الآن ستخبط الأرض برجلها، غاضبة، وتساءلت كم من المرات اعتادت جينيفر هذه أن تتصرف بهذا الشكل الذي يكرهه أبوها، لكي تنال مرادها؟

قالت راضية وهي تأخذ فرشاتها من حقيبتها ثم تدير

ظهرها إليها لتقف أمام المرأة تسرح شعرها وهي تقول: «إذن فقد نجحت في هذا، أليس كذلك؟» وابتدأت عملها الصباحي في معالجة تجاعيد شعرها الصعبة إلى أن اصبحت منتظمة نوعاً ما.

لكن، كان في استطاعتها أن ترى صورة جينيفر خلفها في المرآة أيضاً، عالمة بأن الفتاة قد أخرجها عن توازنها، ردها هي على تعمدها الوقاحة. ولم تستطع صوفي أن تدرك سبب هذه الوقاحة، ولكنها، استطاعت أن تتذكر نفسها كيف كانت في السادسة عشرة من عمرها. وشعرت بالعطف عليها متفهمة مدى شعورها بالاحباط إذ ترى نفسها تعاملها كإمرأة طفلة، فهي اكبر من أن تعامل كطفلة، وأصغر من أن تعامل كإمرأة. ومن الواضح أنها تشعر بالمرارة في أعماقها وهي ترى والدها يحضر لها مرافقة مدفوعة الأجر لتبقى معها أثناء الإجازة المدرسية.

لكنها ما زالت لم تفهم لماذا جينيفر هنا، بينما أخبرها الأب أمس أنها ستذهب لقضاء إجازتها في بيت خالتها. إلا إذا كان قد كذب عليها، لكنها لم تعتبر أن هذه هي القضية. فقد صدقته... إنه بغطرسته تلك، لن ينحط إلى درجة أن يكذب عليها مراعاة لشعورها. إنها متأكدة من أن ماكسيميليان غرانت يتوخى في حديثه الصدق على الدوام، ولو كان جارحاً قاسياً، ولكن...

شهقت وهي ترى انعكاس صورة ساعتها في المرآة، لترى أنها الواحدة بعد الظهر، أي وقت الغداء. وفهمت ما سبق وقصدت جينيفر بقولها لها منتقدة أنها تمضي النهار نائمة.

لم يكن عندها فكرة عن تأخرها هذا، لقد أوت إلى فراشها في الثالثة صباحاً، ولكن، مع هذا...

قطبت جبينها قائلة: «كان ينبغي أن يوقظني أحد ما.» وتساءلت عما قد يظنه ماكسيميليان غرانت بها إذ تبقى في فراشها إلى هذا الوقت. ولم تشك في أنه استيقظ منذ ساعات بالرغم من قلة نومه هو أيضاً. يبدو أنه من ذلك النوع من الرجال الذين يكفيهم ساعتان فقط من النوم، ليستيقظوا في الصباح التالي، في منتهى النشاط والانتعاش.

قالت جينيفر ببطء وهي ترفع حاجبيها متهكمة: «لقد قام شخص بذلك.»

سألتها صوفي وهي تتوجه نحو الخزانة فتخرج حقيبة ملابسها لتضعها على السرير ثم تبدأ بوضع حاجياتها في داخلها: «هل أرسلك أبوك؟»

أجابت: «كلا، إنه... ما الذي تفعلينه؟» وعبست وهي ترى حركاتها السريعة.

أجابتها صوفي بصبر نافد: «إنني أحزم أمتعتي طبعاً.» وتركت على السرير سروالاً وقميصاً مقفولاً لتلبسهما أثناء النهار، واضعة كل أمتعتها في الحقيبة، وأخذت عيناها تبحثان في أنحاء الغرفة للتأكد من أنها لم تنس شيئاً. كانت دوماً تحب أن تسافر خفيفة لا تحمل سوى الضروري جداً، ثم قالت تسألها: «ألم يخبرك أبوك أنه غير رأيه بالنسبة إلى المرافقة المأجورة؟»

أجابت جينيفر وهي مازالت على عبوسها: «إنني لم أتكلم مع أبي بعد.»

كانت صوفي في طريقها إلى الحمام، فوقفت

لدى سماعها ما قالته، وهي تقول غير مصدقة: «ماذا؟»

ردت عليها هذه وفي عينيها نظرة متمردة: «إن أبي لا يعلم أنني هنا، لقد أخذت سيارة أجرة قادمة مباشرة من المدرسة.» كان التحدي سافراً في لهجتها المتعجرفة.

فكرت صوفي في أن المصروف المخصص لهذه الفتاة لا بد أن يكون كبيراً إلى درجة مكنتها من دفع أجرة سيارة. أما ثوبها هذا فقد كانت صوفي متأكدة من أنه ثوب المدرسة الرسمي للصيف، ولكن، إذا لم يكن ماكسيميليان غرانت يعلم بأن ابنته هنا...

قالت صوفي ببطء: «ألا ترين أنه كان ينبغي عليك، على الأقل، أن تقولي لأبيك مرحباً، حالما تصلين إلى البيت؟» قالت هذا وهي تتساءل عما عسى أن يقول ماكسيميليان غرانت وهو يرى خطته تتغير بهذا الشكل الاعتباطي بفعل ابنته ذات الستة عشر عاماً والتي هي نسخة ثانية عنه.

بدا على جينيفر بوضوح، رغم ما ظهر عليها من تمرد، أنها تتساءل عن نفس الشيء وهي تعبث بأصابعها الطويلة الرشيقة بقفل حزامها بعصبية، قائلة: «إنني لا أريد أن استعجل العاصفة التي أعلم أنها ستحدث عند ذاك. وليس في نيتي أن أرغم على قضاء أسبوع مع خالتي سيليا.»

ازداد العبوس على وجه صوفي، إنها تشعر بأن ما تقوله جينيفر عن العاصفة التي سيقابلها بها أبوها، صحيح. فهي لا تستطيع أن تتصور أن ماكسيميليان غرانت سيسكت عن عصيان ابنته له. وهي لا تلومه كذلك... وقالت: «ولكن، ألا ترين أن القلق سيتملكه بشأنك؟ ربما كان الآن قد اتصل

بخالتك لكي يتحدث إليك، أو ربما قد اتصلت هي به لأنك لم تصلي إلى منزلها كما كان متوقعاً، أو...»

قاطعتها جينيفر بلهجة لاذعة: «إن خالتي سيليا هي شقيقة أمي الصغرى، وهي لم تتكرم باستضافتي في منزلها طيلة هذا الاسبوع إلا لأنها تكن لأبي مشاعر حارة.»

شهقت صوفي قائلة: «جينيفر.» ذلك أنها لم تشأ أن تسمح لمثل هذا الكلام العديم الاحترام منها أن يمر.

وردت الفتاة بحدة: «إنني أكره أن ادعى جينيفر. جين، إنما ليس جينيفر مطلقاً.»

هزت صوفي كتفيها دون اهتمام وهي تقول: «لا بأس يا جين.» لم يكن يهمها بأي اسم تحب هذه الفتاة أن تدعى فقد كان ثمة مواضيع اكثر أهمية للحديث عنها. ولم تستطع إلا أن تتساءل عما إذا كان ماكسيميليان غرانت يبادل أخت زوجته تلك المشاعر الحارة. واستطردت تقول: «إن كلامك هذا عن خالتك لا يغير من الواقع شيئاً وهو أن أباك سيدركه القلق إذا علم أنك لم تصلي إلى بيتها كما قرر هو ذلك.» وجاءهما صوت يقول ببرود: «إن هذا لن يحدث.»

استدارت الفتاتان معاً نحو الباب المفتوح حالما سمعتا ذلك الصوت الغاضب الخشن. في البداية، بدا الشعور بالذنب على وجه جينيفر واضحاً ليتبعه حالا مظهر التمرد، أما صوفي فقد دار في ذهنها حالاً التساؤل عما يكون قد سمع من حديثهما.

احمرت وجنتاها لهذا. ولكن ماكسيميليان غرانت لم يكن في حالة تسمح له بملاحظة ما تلبس، ذلك أن انتباهه كان موجهاً نحو ابنته.

قال لابنته بوحشية: «هل عندك فكرة عن الازعاج الذي سببه تصرفك الطائش، أيتها السيدة الصغيرة؟ لقد أبلغت الشرطة عن نبأ غيابك.»

قالت جين بذهول وقد شحب وجهها: «الشرطة؟»

«نعم الشرطة.» أجاب بذلك وهو يدخل إلى الغرفة بادي النشاط والحيوية كما توقعت صوفي تماماً أن يكون، في بنطلون أسود وقميص أبيض، وهذا لباسه المفضل. لم يكن قد ذهب إلى فراشه قبلها هي، بل ربما بقي في المكتبة مدة طويلة بعد ذهابها إلى غرفتها. وحملقت جين في أبيها بدهشة وهي تقول: «ولكن...»

قاطعها ساخطاً: «ماذا غير ذلك تنتظرين مني ان أفعل عندما اتصلت هاتفياً بخالتك سيليا فقالت إنك لم تصلي إلى منزلها، وكذلك في المدرسة قالوا إنك تركتها قبل ساعتين؟ وظننت نفسي قد جننت عندما سمعت بعد كل ذلك، صوتك في هذه الغرفة عندما مررت بها.» وهز رأسه ذاهلاً. لقد كان الارتياح الذي شعر به حين تأكد من أن ابنته بخير، يشوبه الغضب بعد إذ أدرك أن قلقه ذاك لم يكن ضرورياً أبداً.

غصت جين بريقها، كما أن صوفي قد أدركت أن تصرف هذه الفتاة كان أنانياً صرفاً في عدم مراعاتها لشعور الآخرين، ولكنها، في الوقت نفسه لم تملك إلا أن تعجب برفض جين الاذعان حتى بعد غضب أبيها البالغ من تصرفها هذا. ولو سنحت لها فرصة، ولو أن عنادها هذا في التصرف كما يعجبها كبح جماحه قليلاً، إذن لأصبحت جين غرانت فتاة مقبولة المعشر.

قالت جين: «كنت أقدم نفسي إلى... إلى...» بدا عليها

الضياع فجأة بعد أن ادركت أنها في الوقت الذي كانت تبلغ فيه صوفي بعنف عن الاسم الذي تريدها أن تدعوها به، لم يخطر ببالها أن تعرف إسم صوفي. وأكملت صوفي قائلة لها: «صوفي.» لقد بدأت تشعر بالأسف لأجلها. فهي ما كانت لتقبل، بعدما حدث بين ماكسيميليان غرانت وبينها الليلة الماضية، أن تكون مكان جين هذه في العشر دقائق التالية.

قال ساخراً بخشونة: «يبدو أنكما، أنت والآنسة غوردون، لم تتعارفا تماماً. وأظن الأفضل أن نتركها، نحن الاثنين، وحدها.»

أما جين التي سبق وأظهرت نفسها كأنها ثائرة، بدت أيضاً أنها ليست بالغبية، إذ أنها، وهي تتقدم والدها نحو الباب، لم تنس أن ترمقها بنظرة ذات معنى. ولكن صوفي لم تشعر نحوها باللوم، إذ لا بد أن الفتاة المسكينة كانت تشعر وكأنها ذاهبة إلى المشنقة.

لم يتبع ماكسيميليان غرانت ابنته مباشرة في الخروج من الغرفة، ذلك أن نظراته وقعت على أمتعتها المحزومة على السرير، فالتفت إلى صوفي قائلاً باقتضاب: «لا ترحلي قبل أن اتحدث إليك مرة أخرى.» ثم تبع ابنته إلى الممر خارج الغرفة، صافقاً الباب خلفه بعنف، وتهالكت صوفي بضعف على سريرها. كانت تشعر وكأنها تعرضت إلى هزة عاطفية، فهي لم تكن من أولئك الذين يستيقظون بحيوية ونشاط حتى ولو بقوا نائمين إلى وقت الغداء. فهي بحاجة إلى وقت كلي تجهز نفسها لعمل اليوم. ويظهر أن عائلة غرانت اعتادت على مواجهة الحياة مباشرة دون اعتبار لوقت نهوضهم من النوم.

ثم، ماذا كان يعني ماكسيميليان غرانت بملاحظته الأخيرة؟ هل كان يعني أن لا ترحل قبل أن يعنفها مباشرة في حضور ابنته؟ أم أنه يعني شيئاً آخر؟ على كل حال عليها ألا تذهب إلى أي مكان قبل أن ينتهي على الأقل من حديثه إلى جين عن عملها الأناني الطائش.

بعد ذلك بمدة قصيرة، ذهبت صوفي إلى المطبخ حيث كانت خالتها مستغرقة في عمل ما، يبدو أنه غداء متأخر، ويبدو أن سلوك جينيفر قد ترك تأثيره على كل من في المنزل. ولكن كان هنالك إبريق قهوة جاهزاً. وهكذا سكبت صوفي لنفسها فنجاناً من القهوة أخذت ترشفه، كانت ماتزال غير شاعرة تماماً بالانسجام بين نفسها والعالم، ذلك أنها رغم تمتعها بحمام حار، إلا أنها تعبت في تصفيف شعرها المجعد ومعالجته إلى أن أصبح بشكل شبه منظم.

نظرت إليها خالتها نظرة ذات معنى وهي تقول: «إنني لم أدهش لتصرف جينيفر ذاك الذي أرادت به أن تمضي عطلتها على هواها. ذلك أن لها نفس الإرادة القوية التي لأبيها.» وهزت رأسها وقد بان عليها الرضى وهي تتابع: «ولكن هذا في مصلحتك أنت. أليس كذلك؟» وسكبت بقية القهوة في إناء من الخزف الصيني قبل أن تضعه على صينية كان قد سبق تجهيزها بفناجين وسكر وقشدة.

قطبت صوفي جبينها إذ لم تعرف معنى ما تقوله خالتها، فقد كان ذهنها تعمه بعض الفوضى، وسألتها: «أهو كذلك؟»

نظرت إليها خالتها وقد فرغ صبرها لسذاجتها وهي تقول: «طبعاً هو كذلك. إذ أنك ستحصلين على ذلك العمل الآن ما دامت جينيفر جاءت إلى البيت.» والتقطت الصينية

لتناولها لها وهي تتابع: «خذي هذه إلى المكتبة ريثما أنهي أنا الغداء.»

لكن صوفي لم تتحرك، ذلك أنها لم تصدق ذلك. فهل يعني وجود جين هنا الآن، أنها هي صوفي، ستبقى هنا؟ قد يكون الأب والابنة من ذوي الإرادة القوية، هما الاثنين، ولكن صوفي لم يداخلها الشك في من هو الأقوى منهما.

قالت عمتها تذكرها بملل: «خذي الصينية إلى المكتبة يا صوفي قبل أن تبرد القهوة.»

مضت صوفي بالصينية، فقد كان عليها أن تذهب إلى المكتبة على كل حال لاعادة الكتاب الذي سبق واستعارته في الليلة الماضي. هذا إلى أنها كانت ترغب في أن ترى الأب والابنة جالسين معاً يتناولان القهوة. فإذا كانا قد طلبا القهوة، فهذا يعني أن الوئام قد ساد بينهما الآن.

دهشت إذ لاحت لها المكتبة خالية بعد أن دخلت بعد نقرة خفيفة بقدمها على الباب. ووضعت الصينية على منضدة القهوة وقد قطبت جبينها. لقد توقعت أن تسمع أصواتاً على الأقل، في الغرفة. هذا إذا لم يكن صراخاً فهي لم تتوقع مطلقاً أن تجد المكان خالياً بهذا الشكل.

سمعت فجأة صوتاً عميقاً يقول: «شكراً.»

استدارت صوفي وهي تشهق مجفلة، لترى رجلاً يقف من على كرسي مواجه للمدفأة لم تره حين دخولها. رأت أنه غير الرجل الذي كانت تتوقع أن تراه. كان هذا الرجل اصغر من ماكسيميليان غرانت، وقد يكون في أوائل الثلاثينات.

قال معتذراً: «هل أفزعتك؟ لم أقصد هذا، فقد كنت أشكرك

فقط لاحضارك قهوتي.» قال ذلك مشيراً إلى الصينية التي أحضرتها.

قالت: «قهوتك؟» كانت تظن أن الصينية هي للسيد غرانت وابنته، ذلك أن خالتها لم تذكر شيئاً عن ذلك الرجل، فعبس الرجل وهو يقول: «إن ماكس ما زال يتحدث إلى جين في مكتبه. ولا بد أنك أنت...» وحرك حاجبيه القاتمين بفضول.

في المكتب إذن. وطبعاً، هذا المكان هو الذي اختاره ماكسيميليان للمقابلات غير المستحبة.

قالت وهي تمد يدها له بأدب: «اسمي هو صوفي غوردون.»

فرد عليها التحية بيد ثابتة قوية قائلاً: «بول وايزمن. إنني مساعد السيد غرانت، لقد جئت هذا الصباح لأكون معه هنا.»

فكرت صوفي في أن ذلك يبدو غريباً... ذلك أنه إذا كان ماكسيميليان غرانت سيبقى عطلة نهاية الأسبوع هنا، على الأقل فلماذا قرر أن يرسل ابنته إلى بيت خالتها؟

قالت دون أن تعني شيئاً وهي تترك يده: «هذا حسن.» فرفع حاجبيه مرة أخرى سائلاً: «أهو كذلك؟» فابتسمت قائلة: «في الحقيقة، لا ادري تماماً... فقد كان من المفروض ان اعمل لدى السيد غرانت ولكن هذا لم يتم.» وهزت كتفيها وهي تفكر في أنها ربما تكون وضعت ثقتها في هذا الرجل اكثر مما يجب لتخبره بكل هذه الأمور، وربما هو صديق السيد غرانت ومساعده في نفس الوقت.

يبدو أن اهتمام السيد وايزمن قد اشتد هنا، فسألها: «ثم ماذا؟»

هل كانت تتخيل ذلك، أم أن حساسيتها الزائدة للوضع هنا، صورت لها أن هذا الرجل بدا فجأة في غاية اليقظة والوعي؟ وقالت ضاحكة: «إنني لم أكن لأنافسك على عملك، فالمسألة تافهة. إن عملي لا يعدو مرافقة فتاة صبية حالياً، مع أن جين بعيدة عن أن تكون صبية صغيرة الآن.»

كرر بول وايزمن كلامها بفضول سائلاً: «حالياً؟» وقطبت حاجبيها لتركيزه على هذه النقطة في حديثها. حاولت جاهدة، أن تتخلص من الشعور بالضيق الذي أوجده هذا الرجل في نفسها، ثم انها لا تعرفه. ولكن طريقته تلك في إلقاء الاسئلة عليها دون أن يكشف شيئاً عن نفسه، عدا اسمه وعمله مع ماكسيميليان غرانت، وأنه جاء هذا الصباح ملتحقاً به، كان هذا ما يزال يعتمل في نفسها. كذلك، إن عمل ماكسيميليان غرانت يأخذ كل اوقاته، ليلاً نهاراً إذا هو شاء، فهل من الكثير عليه إذا هو خصص بعض الوقت ليمضيه مع ابنته أثناء عطلتها المدرسية؟ فإذا كانت هذه هي القضية، فإنها لا تلوم جين إذ تستلم الأمر بيدها مقررة بنفسها المكان الذي تريد أن تمضي فيه عطلتها هذه؟

وهكذا جاء جوابها لبول وايزمن اكثر حدة مما قد يستوجبه الأمر، لتقول: «إن محاولة المرء تحسين وضعه، هي طبيعة بشرية، وأنا لا أنوي أن أمضي كل وقتي تلميذة لجزء من الوقت، ثم أقوم بأعمال مختلفة في الوقت نفسه.» فنظر إلها متفحصاً وهو يسألها: «تلميذة لجزء من الوقت؟ ماذا تتعلمين؟»

فكرت في أنه ليس لهذا الرجل الحق في أن يبدو بنفس حدة مخدومه! لقد اخبرته بما فيه الكفاية عن نفسها الآن،

وهي لا تنوي إخباره اكثر من ذلك. خاصة عندما يكون واضحاً أنها أكبر سناً تقريباً من أن تكون تلميذة. ولكنها قامت بشيء خطأ في حياتها، وعليها الآن أن تضاعف جهودها لكي تعوض ما فاتها بالنسبة لتأسيس مستقبلها.

أجابت مراوغة وهي تبتسم: «عن الحياة، يا سيد وايزمن.»

قال بلطف: «كلنا تلامذة بهذا، يا صوفي. كان عندي انطباع بأنك كنت تقصدين دراسة معينة.»

عبست وهي ترى تصميمه هذا. ولم تكن هي قد اعتبرت، يوماً ما، دراستها الحرة في الجامعة، سراً. ولكن، ليس معنى هذا أنها كانت تطوف النواحي وتسبب الضجر للآخرين بالتحدث إليهم عن ذلك. خصوصاً وأنهم، عندذاك، يريدون أن يعلموا لماذا لا تدرس وقتاً كاملاً في الجامعة. كما يفعل هذا الرجل بفضوله المستمر لكي يعرف كل شيء عنها مما شعرت معه بالضيق.

قالت: «أحقاً؟ إنني أستأذن الآن، يا سيد وايزمن. لأن عليّ أن استقل القطار عائدة إلى لندن عصر هذا اليوم.» واستدارت لتخرج وهي تشعر بأنه ما زال يراقبها بحدة. لم تكن تشك في أنه مناسب جداً لدور المساعد لماكسيميليان غرانت، ولكنه، كما لمست صوفي، كان بنفس غلظة مخدومه، تقريباً... وكذلك، والحق يقال، فهو عندما كان قلقاً وغاضباً بعد ذلك، لسلوك جيني الطائش،لم يكن بالضبط...

من خلفها تماماً، جاءها صوت بول وايزمن يقول: «هل تريدين أن تتركي الكتاب هنا، يا صوفي؟» وفي الواقع، كان

بالقرب منها، عندما استدارت إليه لدرجة تراجعت معها خطوة إلى الخلف، ونظرت إليه بضيق تفهمه بها مبلغ انزعاجها. وقال باستخفاف: «عندما رأيت الكتاب تحت إبطك، افترضت أنه تابع للمكتبة هنا، وأنك، على الأغلب، تريدين رده إلى مكانه قبل رحيلك.»

كتاب جين إير... لقد نسيت أمره تماماً في الحقيقة، أثناء حديثها إلى هذا الرجل رغم أنها كانت قد وضعته تحت إبطها، وهي تحمل الصينية، توطئة لإعادته إلى مكانه. ولكن بالعكس، ذلك أن ضيقها بهذا الحديث هو الذي أنساها هذا الكتاب الذي اجتهدت لإنهاء قراءتها له قبل إعادته. هذا الشيء الذي لم يسبب لها سوى المتاعب، خصوصاً وقد اتهمها رجل البيت هذا بمحاولة سرقته.

أجابته بحدة: «آه طبعاً.» ثم وضعته في مكانه على الرف وهي تتابع متوجهة إلى الباب: «وداعاً يا سيد وايزمن.»

لأول مرة تبدو في وجهه إمارات التهكم وهو يجيب: «أتظنين ذلك؟»

أجابت وقد قطبت جبينها لجوابه الغامض هذا: «لقد كان الأمر جداً مزعزعاً بالنسبة إلى...»

قاطعها بلطف: «دعيني بول من فضلك، إن رفع الكلفة تساعد على الانسجام والتلاؤم في علاقات العمل.»

لكن هذه العلاقة ليست موجودة ماداما لا يعملان معاً. والآن، بعد تعرفها إليه، ومن قبل إلى السيد غرانت، ابتدأت بالتساؤل عما يمكن أن يكون السبب في استيائها لذهاب هذا العمل من يدها. ذلك أن ارتباط، هذا العمل، بجين غرانت، يجعله حافلاً بالمشقة إن لم يكن مستحيلاً.

ابتسمت له بعفوية وهي تستدير مرة أخرى لتخرج. وهي تتساءل عما إذا كان قد استمع حقاً إلى اجوبتها لاسئلته الفضولية، ولكن لتصطدم بماكسيميليان غرانت.

قال بول: «لقد أحضرت صوفي لنا القهوة، يا سيد غرانت.»

قال ذلك بكل تكلف بالرغم من ادعائه السابق لها (إن رفع الكلفة تساعد على الانسجام والتلاؤم في علاقات العمل) ولكن يظهر أن هذا لا ينطبق على علاقته مع ماكسيميليان غرانت، إن بول وايزمن شخص مخادع، هذا إلا إذا كان كلامه ذاك لها هو نوع من المغازلة... في ظرف أربع وعشرين ساعة، تعرفت إلى ثلاثة رجال غير عاديين مرة واحدة، واحد منهم حاول أن يغريها على إفشاء اسرار لم تعرفها بعد، وليس من المحتمل أن تطلع عليها كما يبدو، وثان يشتبه بعلاقة سيئة بينها وبين الأول، فعاملها تبعاً لذلك، والآن ها هو ذا الثالث يبدو أنه يركز ناظريه عليها وعلى ماكسيميليان عن قرب. ثلاثة رجال لا تريد هي علاقة مع أي منهم.

أومأ ماكسيميليان برأسه قائلاً: «لقد قالت لي خالتك انك جئت إلى هنا، إنني أريد أن أتحدث إليك يا صوفي.»

كانت صوفي تعلم أن هذا الحديث كلما كان أسرع كان أفضل. لقد كانت تريد الرجوع إلى لندن بأسرع ما يمكن لكي تبدأ في البحث عن عمل من جديد لهذا الأسبوع.

أومأت برأسها قائلة: «لقد أردت أن أساعد خالتي في عملها إلى أن تنتهي أنت من حديثك مع جين.»

ألقى نظرة على بول وايزمن وهو يقول لها بتعاليه

المعتاد: «فليكن ذلك في مكتبي.» وقال لبول وايزمن بلطف: «تابع أنت تناول قهوتك، يا بول فسأنهي هذه المسألة بسرعة ومن ثم نتفرغ للحديث معاً في شؤوننا.»

مشت أمامه، لأنه كان واضحاً أن هذا هو المنتظر منها، ذلك أن كلامه (سأنهي هذه المسألة بسرعة) تعني أنه سيدفع لها تكاليف السفر التي وعدها بها، ثم يصرفها لتعود إلى بيتها. وشعرت بنفسها وكأنها شيء غير مرغوب فيه يريد التخلص منه.

لم تكن جين في مكتب أبيها عندما دخلاه. ولم تتمالك صوفي من الشعور بالأسى نحو الفتاة وهي تتكهن، من وجه ماكسيميليان العابس وهو يجلس خلف المكتب، بأن ما سبق وحدث بينه وبين ابنته منذ فترة، ليس مما يسر بالنسبة لهما، وفي نفس الوقت لم يساور صوفي الشك في أي منهما هو المنتصر. مسكينة جين، لا بد أنها الآن تحزم أمتعتها للذهاب إلى بيت خالتها تلك التي (تكن لماكسيميليان مشاعر حارة) أترى ماكسيميليان يكن نفس المشاعر لسيليا هو أيضاً؟ وهل هذا هو السبب في تصميمه على أن تذهب جين إليها؟

قال: «أردت أن أسأل خالتك عما إذا كنت تحسنين ركوب الخيل، لأن جينيفر في غرفتها الآن ترتدي ثياب الركوب. وأنا أكره أن أثبطها عن ذلك لأنها لن تذهب إذا لم تكوني أنت معها.» وبدا الحزم في لهجته وهو يقول جملته الأخيرة.

حدقت صوفي به دون أن تفهم. إن جين في الطابق الأعلى ترتدي ثياب الركوب... إلى أين يريدها أن تذهب معها؟

هزت رأسها بحيرة، وهي تقول: «ولكن... لكنني ظننت...»

نظر إليها وهو يقول بخشونة متحدياً: «نعم؟ ما الذي ظننته يا آنسة غوردون؟»

مهما يكن من أمر، فإنها لم تكن بالغبية كي لا تلاحظ المزاج الذي كان فيه. ذلك أن هيئة المنتصر لم تبد عليه أبداً. ومن هيئته الحالية بدا أنه لم يتقبل هزيمته تلك بصدر رحب، فكان، لهذا، يتحداها أن تذكره بأن جين ستبقى هنا ولن تذهب إلى بيت خالتها... ولكنها لا يمكن طبعاً، أن تقترف مثل هذه الغلطة. وكانت قد لاحظت أنه يدعو ابنته دوماً باسمها الكامل جينيفر، وهو الأمر الذي كانت تكرهه.

سألته: «هل تريد جيـ... نيفر أن تتنزه على ظهر الحصان؟» لقد تذكرت في الوقت المناسب أن تستعمل اسم الفتاة الكامل إذ لم تكن متأكدة من أن غضب ماكسيميليان على ابنته هو الذي جعله يستعمل اسمها الكامل، أم أنه يكره اختصار اسمها اصلاً.

أومأ برأسه باقتضاب قائلاً: «والآن، إذا كنت مازلت تريدين هذا العمل، فإنني أقترح أن تذهبي إليها وترافقيها.»

حسناً، هو يقول إنه يقترح ذلك، ولكنها كانت متأكدة من أنه كان يلقي إليها أمراً عليها أن تطيعه.

أطاعت صوفي دون سؤال أو جدل. وقد نسيت كلياً أنها منذ فترة بسيطة، كانت قد قررت أن تبتعد عن هذا المكان.

الفصل الخامس

إذا كانت امارات النصر لم تظهر على ملامح ماكسيميليان غرانت، فانها لم تظهر، كذلك، على ملامح جين وهي تقفل آخر زر في جاكتة الركوب بعصبية، ثم تصفق باب خزانتها بعنف، بعد أن القت نظرة على نفسها في مرآة الخزانة الداخلية لتتحول، بعد ذلك، إلى صوفي التي كانت تقف عند الباب.

كانت صوفي قد أمضت في المطبخ وقتاً كافياً أخبرت فيه خالتها بأنها باقية هنا، لتسرع بعدها إلى غرفة نوم جين، وكان الباب مفتوحاً. وبنظرة واحدة، أدركت صوفي أن جين لم تكن فتاة منظمة. فهي قد عادت إلى البيت منذ وقت قصير جداً، ومع هذا، كان ثمة ملابس متناثرة في أنحاء الغرفة. حتى أن صوفي، عندما استدارت جين تنظر اليها بذلك الغضب المتحدي في عينيها الزرقاوين الباردتين فإن صوفي لم تكن متأكدة من أن هذا كان راجعاً إلى طبعها المحض أم إلى تلك الفوضى الغارقة فيها!

قالت جين بحدة واستياء، وهي تربط شعرها إلى الخلف بشريط أسود: «لقد جئت للشماتة بي، أليس كذلك؟»

لم تفهم صوفي ما الذي قصدته بهذا... ما الذي كان يدعوها إلى الشماتة؟ حيث أن جين هي التي حصلت على ما تريد. ولكن، أن تقول للفتاة بأنها لا تعرف ماذا تقصد

بكلامها هذا، فهذا ضد مصلحتها، وإزاء هذه الفتاة العنيدة، هي بحاجة إلى كل ذرة من الهدوء وضبط الأعصاب.

قالت لها بمودة واضحة دون أن تنفي الأمر كلياً: «ليس ذلك بالضبط.»

ألقت عليها جين نظرة لاذعة وهي تأخذ بعنف قلنسوة الركوب من على السرير قائلة: «أظنك تحصلين معيشتك بشكل ما.» كان في كلامها هذا اهانة متعمدة وقد لوت شفتيها بازدراء وهي تستطرد: «ولكنني متأكدة من أن ثمة أعمال أخرى تجدينها هي أفضل من أن تكوني سجانتي.»

اتسعت عينا صوفي لهذه التهمة. فقد تصورت قبل مقابلتها لجين بأنهما، هما الاثنتان، قد تصبحان صديقتين، فتمرحان معاً وتذهبان للتجوال في الأسواق، أو إلى السينما أو المسرح في المدينة. حتى الآن، بعد أن أدركت أن جين لم تكن تلك الفتاة الصغيرة المتشوقة إلى مرافقتها كما كانت تأمل، مازالت تأمل في استخلاص شيء من المرح من ذلك الأسبوع الذي سيمضيانه معاً. ولكن، إذا كانت نظرة جين إلى وجودها هنا ستكون بهذا الشكل...

قالت بأسف: «ربما علي ان أبلغ أباك، إذن، أن وجودي هنا ليس بالفكرة الصائبة. لقد كنت آمل أن نصبح صديقتين.»

«صديقتين؟» نطقت جين بهذه الكلمة بحدة وازدراء وقد شع الغضب من عينيها وهي تتابع: «كان عليّ اما أن أقبل بوجودك معي هنا كمرافقة، وإما أن أذهب إلى بيت خالتي. أي أساس للصداقة هو هذا؟»

إذن، فهذا هو شرط ماكسيميليان غرانت للسماح لابنته

بالبقاء هنا؟ ألم يدرك أن فعله هذا يجعل الأمور صعبة، بالنسبة اليها منذ البداية؟

قالت: «جين...»

فقاطعتها وعيناها تلمعان بالتحدي: «هل هذا هو السبب في تصميمه على ابقائك هنا؟»

لم تتمالك صوفي نفسها من الاجفال إزاء اهانة هذه الفتاة الصغيرة لها سواء بالكلام أم بالتلميح. ولم تشك لحظة في أن الفتاة قصدت اهانتها. كما أنها لم تلمها كذلك، لاستيائها ازاء شرط أبيها الذي وضعه هذا لاقامتها هنا، وربما كان ثمة تجربة سابقة لجين مما جعل أباها يفرض عليها ذلك...

أجابت بقوة ووضوح: «انك نفسك لا تصدقين هذا الأمر، يا جين.» وعندما رأت محاولة جين للاحتجاج، قاطعتها: «كلا، لا يمكن أن تظني هذا، وأنا في الحقيقة آسفة لاختيار ابيك في وضع الأمور أمامك بهذه الطريقة. أظن من الأفضل لنا جميعاً أن أوضح لأبيك أن وجودي هنا لن ينفع، وننهي الأمر بهذا. ما رأيك؟» ولم يكن في لهجتها أية مرارة او أسف وهي تقول ذلك.

ضاقت عينا جين وبان فيها الارتياب وهي تقول: «هل تفعلين ذلك حقاً؟»

أجابت صوفي دون تردد: «بالطبع.»

قالت جين تذكرها ومازال الحذر في نظراتها: «ولكن هذا يعني أن تبقي دون عمل؟»

قالت معترفة: «إن بقائي هنا والحصول على عمل، هو أفضل طبعاً. ولكن...»

قالت جين ببطء: «يبدو من هذا انه لا مناص لنا، نحن الاثنتين، من أن نبقى معاً، إذ انني لا أريد أن أذهب إلى بيت خالتي... لماذا، بالنسبة إلى...» وسكتت وقد توجه انتباهها إلى شيء رأته خارج النافذة، مما جعل صوفي تقترب منها لتنظر، هي أيضاً إلى الشارع الذي كانت تشرف عليه النافذة.

كانت هناك ثلاث سيارات تقف في الباحة الآن، سيارة ماكسيميليان الخضراء الأنيقة ماركة بي إم دبليو، والروفر ذات اللون الفضي الذي تكهنت صوفي بأنها لبول وايزمن، وبجانبها سيارة مرسيدس رياضية بيضاء اللون. وكانت تخرج من هذه واحدة من أجمل النساء اللاتي شاهدتهن صوفي في حياتها.

كانت أنيقة طويلة القامة، وترتدي ثوباً أحمر اللون ذات شعر أسود ينسدل على كتفيها وهي تسير نحو المنزل بحذائها ذي الكعب العالي الذي يتناسب لونه تماماً مع لون ثوبها.

قالت جين بازدراء وهي تنظر باستخفاف إلى صوفي التي كانت تبدو عليها الحيرة، قالت: «إنها جاءت لتشرفنا بزيارة.»

هذه إذن الخالة سيليا؟ وغابت المرأة عن أنظار صوفي عند دخولها إلى المنزل، ولكن صورتها بقيت حية في خيالها. ذلك أن سيليا، التي كانت تشع منها الجاذبية وهي تخطو برشاقة، لم تكن تشبه أية خالة رأتها من قبل. ولكن ما أثار فضول صوفي هو مبادرة هذه المرأة إلى القيام بهذه الزيارة بهذه السرعة بعد أن أبلغت ماكسيميليان أن جين لم تصل إلى منزلها لكي تصل إلى هنا بهذه السرعة؟

لكن صوفي كانت تريد أن تتفاهم مع جين بالنسبة للكلام المهين الذي قالته، قبل أن تحاول ارضاء فضولها نحو تلك المرأة الجميلة التي وصلت الآن، فقالت: «أعتقد اننا كنا في سبيلنا إلى النزهة على ظهر الخيل؟»

فكرت جين عدة لحظات لتومىء بعد ذلك ببطء وهي تقول: «وهو كذلك.» واتجهت نحو الباب قائلة: «دعينا نهرب الآن قبل أن أضطر إلى النزول والاعتذار للخالة سيليا.» ووقفت عند العتبة وهي تنظر إلى صوفي قائلة بضيق إذ رأتها لا تتحرك: «صوفي، إذا نحن خرجنا الآن فستكون أمام سيليا فرصة سانحة لأن تؤثر أبي مما سيجعل مزاجها مرتاحاً.»

انضمت ببطء إلى الفتاة وهي تقول: «ربما ستتحسن نفسيتها إلى درجة تعفيك فيها من الاعتذار؟»

دارت عينا جين بنظرة ذات معنى وهي تجيب: «آه، ولكن، مع هذا، عليّ أن أقدم اعتذاراً مهيناً. ولكن، انفرادها ساعة مع أبي سيكون الفرق بين قبولها الاعتذار هذا بلطف، أو بألم حقيقي بسبب...»

لم تستطع الا ان تبادل الفتاة الصغيرة ابتسامتها الوقحة، شاعرة، في تلك اللحظة بما يحببها اليها. وهكذا، هزت رأسها بأسى وهي تتبع جين إلى المطبخ من السلم الخلفي، بينما تسألها باعجاب: «لقد تدبرت حقاً كل هذا، أليس كذلك؟»

وفكرت في انها هي نفسها كانت تعتذر بهذه الحجة الواهية، لتخفف من عقاب والديها لها في حداثتها حين كانت تسيء اليهما بسلوكها، وتابعت تقول: «آسفة، إذ يخيب املك إن علمت بأن أباك ليس وحده، فعنده بول وايزمن.»

ألقت جين عليها نظرة أخرى، وهما يقتربان من المطبخ قائلة وقد بدت عليها الحيرة: «ومن هو بول هذا؟»

أجابت بشيء من الدهشة: «كنت أظنك تعرفينه. انه...»

قاطعتها جين بحدة بعد إذ اقتربت من باب المطبخ هامسة. «إن أبي في المطبخ يخبر خالتك أن خالتي ستكون معنا على الغداء المتأخر والمفروض أن نحضره جميعاً! أعلم أن الخطأ خطأي في تأخرنا هذا. ولكنني جائعة جداً. آه، أرجو ألا يكون أبي قد رآني.» ووقفتا معاً بجانب الجدار آملتين ألا يكون قد رآهما من النصف الأعلى الزجاجي للباب الخلفي الذي ينفذ على المطبخ من عند السلم الخلفي هذا.

لم يسمعا صوت ماكسيميليان ينفجر بالغضب من المطبخ مما افترضت معه صوفي انه لم ير جين، وطبعاً هي أيضاً، وهما تتخفيان هنا.

لكنها نسيت كل شيء عن الغداء بالنسبة اليها، منذ استيقظت عند الظهر متأخرة، وكما أشارت جين الآن، كان الوقت متأخراً بالنسبة للغداء. فهذا الغداء المتأخر كان أقرب إلى أن يكون وجبة، شاي العصر. ويبدو انها ستقابل سيليا، هي أيضاً، على مائدة الغداء، وهذا شيء لم يكن ليعجبها، واعترفت بأنها تشارك جين شعورها ذاك، وانما لسبب مختلف. ذلك ان تلك النظرة الخاطفة إلى سيليا جعلتها تدرك مقدار الفرق بينهما، فقد كانت صوفي قصيرة غلامية الشكل، ذات شعر أحمر ثائر وبعض النمش على وجهها، وملابسها عادية جداً. وكانت واثقة ان تلك المرأة التي تبدو في أواخر العشرينات من عمرها، ستعاملها بنفس التعالي الذي تعاملها به جين. تماماً كما تستحق، حسب تقديرهما.

قالت جين تشجعها بصبر نافد: «هيا.» وكان واضحاً ان الطريق أصبح خالياً بينما كانت صوفي مستغرقة في شكوكها التي أثارتها سيليا الجميلة.

قالت جين مسرورة وهي تأخذ قطعة من الكيك لتلتهمها: «آه... انها لذيذة كالعادة، يا سيدة كرين.»

قالت الخالة ميلي وهي تتحول عن الفرن: «آنسة جينيفر.» ثم هتفت وقد اتسعت عيناها: «صوفي!» ذلك بعد أن شاهدتها تدخل المطبخ في اثر جين.

هتفت صوفي وهي تسرع خلف جين: «لا يمكننا التوقف يا خالتي.» وكانت جين قد توقفت لتأخذ قطعة ثانية من الحلوى قبل ان تنطلق إلى أشعة الشمس في الخارج. ولم تجرؤ صوفي على أن تختطف قطعة حلوى لنفسها رغم أن رائحتها ومنظرها قد أسالا لعابها.

رأت جين يديها الفارغتين فسألتها: «ألست جائعة. لا بد أن تكوني كذلك.» أجابت بنفسها على سؤالها بعد أن رأت ما ارتسم على وجه صوفي من تعبير، وتابعت: «لماذا إذن لم... آه، أهو بسبب الخالة المخيفة؟ خذي.» ودفعت اليها القطعة الثانية من الحلوى، بينما أخذت تمضغ قطعتها بصوت مسموع وهي تحث سيرها بكل تصميم نحو الاسطبلات.

كانت صوفي متأكدة من أن ماكسيميليان لو علم بما حدث لرفض أن يدعها تأكل الحلوى المسروقة تلك، إذ أن معنى ذلك هو التغاضي عن سلوك جين المشين هذا. ولكن صوفي لم تهتم في تلك اللحظة بما قد يعتقده ماكسيميليان. ذلك أن تلوي معدتها من الجوع جعلتها تشعر أن من الغباء ألا تأكل تلك الحلوى.

ولكن، ما ان أسرعت لتلحق بجين عابرة باحة الإسطبلات، حتى أخذت تفكر في من هو بالضبط المسؤول عن الآخر. لقد كان لجين تفكيرها الخاص يتبع ذلك ارادة قوية. هذا، ومع طبيعة صوفي المسالمة التي لا تحب التسلط على الغير والتي، كما يقول المثل، تعيش وتدع غيرها يعيش، هذا لا بد أن يخلق مشكلة في الأيام القليلة المقبلة.

كانت جين الآن قد فتحت باب الإسطبل ووضعت سرجاً على ظهر مهرة جميلة، وكانت تشد حزام السرج هذا، عندما وقفت صوفي عند الباب، فقالت جين لها: «الأفضل أن تأخذي الفرس بيكي إلى أن أرى مقدار مهارتك في الركوب. فهي مطواعة سهلة الانقياد، وهي في المربط التالي لهذا.»

فكرت صوفي ان من السهل فهم السبب الذي يجعل ماكسيميليان وابنته يتفجران عنفاً عندما يكونان معاً... ذلك أنهما... آه، إن جين تعتقد أن هذه الفرس مطواعة سهلة القياد. وتأوهت صوفي وهي تفتح باب المربط لترى نفسها وجهاً لوجه امام اجمل مهرة رأتها. ولكن أن تكون مطواعة سهلة الإنقياد، فهذا آخر شيء يمكنها أن تصدقه.

ليس ذلك أن صوفي ترى في نفسها القصور عن ركوب الخيل، كلا، فلطالما كانت تركب الخيل في هذه الانحاء في حداثتها. ولكنها لم تركب الخيل الآن منذ اكثر من سنتين ويمكنها، لذلك، أن تتصور مقدار الاجهاد الذي ستبذله في ما لو حاولت السيطرة على هذه المهرة اليوم.

وهتفت بها جين التي كانت قد انهت تجهيز مهرتها، وأقبلت تساعدها على تجهيز تلك الفرس: «أسرعي يا

صوفي، لم يعد لدينا...» وذهلت لمرأى هذه الفرس التي كانت صوفي متوجسة خيفة منها. فتركت من يدها عنان جوادها، لتتقدم متأملة الفرس الكستنائية اللون وهي تتمتم برقة تتحدث اليها عن قرب: «ما الذي تفعلينه هنا يا سيدة؟ انك بعيدة قليلاً عن... لماذا السيدة هنا يا جنكنز؟» وعبست لمرأى خادم الاسطبل الذي برز فجأة أمامها.

كان كل ما يهم صوفي، في تلك اللحظة، أن هذه الفرس لم تكن بيكي. وشعرت بالارتياح لشعورها بأن ليس عليها أن تركب هذه الفرس بالذات. وأجفلت الفرس من جين، وهي تصهل غاضبة.

طرق مسامعهما صوت خشن مألوف يقول: «إذا كنت عازمة على الركوب يا جينيفر، فانني اقترح ألا تتأخري عن ذلك. واتركي جنكنز يتابع عمله.» كان هذا صوت ماكسيميليان الذي كان قادماً من البيت وقد ساد العبوس على ملامحه.

تورد وجه جين حنقاً إزاء هذا التعنيف من والدها والذي ليس له مبرر، فهي لم تكن شاغلة جنكنز عن عمله. وقالت: «كنت فقط...»

قاطعها: «انني منتبه تماماً لما (كنت فقط)...»

قال ذلك بخشونة وهو يشير إلى العامل برأسه، ليقفل هذا باب مربط الفرس، ليتابع الأب مخاطباً ابنته وهو يستدير نحو الفتاتين اللتين وقفتا تشاهدان ما يجري: «ألم تقومي بما فيه الكفاية من مشاكل هذا النهار؟»

قالت جين بلهجة متمردة وهي تقفز على ظهر فرسها السوداء: «يبدو أن مجرد وجودي هو مشكلة.»

دفعت برأسها إلى الخلف ثائرة قبل أن تستحث الفرس خارجة بها إلى الباحة ليتصاعد بعد ذلك صوت الحوافر.

ورمق صوفي بنظراته الجليدية، بينما كانت هي واقفة تراقب ما يجري وقد بدا عليها العجز التام.

قال لها: «أظن أنك قررت قبول العمل؟»

كانت هذه أكثر الأسر، التي شاء سوء حظها أن تجتمع بها، غلظة وفظاظة.

قالت ساخطة: «أي حصان تريدني أن أركب؟»

استدار نحو الرجل العامل يقول عابساً: «ان جنكنز سيسرج لك بيكي بسرعة.» وعاد يقول لصوفي: «إن الغداء سيكون جاهزاً بعد أربعين دقيقة.»

من لهجته، أدركت صوفي أن عليهما ألا تتأخرا دقيقة واحدة، والا فانها وجين، ستواجهان تأنيباً عنيفاً من هذا الرجل. ولا شك ان الغداء سيكون مناسبة ممتعة جداً.

بعد ذلك بأربعين دقيقة تماماً كانت هي وجين تدخلان غرفة الجلوس الرئيسية لتنضما إلى ماكسيميليان وسيليا قبل الغداء. وقد عرفت صوفي انها أربعين دقيقة بالضبط لأن جين كانت قد أصرت على أن تتأخر إلى آخر لحظة ممكنة، متعمدة الابطاء في الحمام، ثم ارتداء ثيابها. وذلك عندما عرفت بطلب أبيها هذا... طلب؟... آه، إن جين لا يمكن استغفالها لحظة واحدة. فهي تعلم أكثر من صوفي أن ذلك كان امراً، لأن ماكسيميليان لم يطلب شيئاً قط في حياته. وربما كان يصيح آمراً عندما كان في المهد، وبعد ذلك لم يجد سبباً لأن يغير عادته تلك.

لكن، كما رأت صوفي، الفتاة الصغيرة التي هي جزء منه،

كانت تماثله في صعوبة المعاملة معها، فقد كانت كلما استحثتها تستعجلها لكي لا تتأخر فتسجل لهما علامة سوداء أخرى، زادت هذه في التلكوء، ممضية وقتاً طويلاً تختار ماذا ترتدي من ملابس، ثم في الحمام تغتسل وترتدي ثيابها وكأن أمامها النهار كله لتفعل ذلك. وتركتها صوفي تفعل ما تشاء، فهي لا تعرف ما الذي يغضبهما، الأب والابنة، وما الذي يبعثهما على العناد.

كان تحديد مكان جين عندما انطلقت خلفها على ظهر بيكي قد أخذ من الوقت المحدد لرجوعهما عشر دقائق. وكانت بيكي لحسن الحظ سهلة الإنقياد، واخيراً وجدتها قرب جدول ماء يبعد عن المنزل حوالى النصف ميل، وكانت المهرة السوداء تشرب.

حدقت فيها تلك العينين الزرقاوين الشاحبتين محذرة إياها من القاء اي سؤال يخطر لها، ومع أنهما انطلقتا معا بعد ذلك، فقد استمرت صوفي في احترام صمت الفتاة الصغيرة. ذلك انها لم تشك في أن جين ستتكلم عندما تجد حاجة لذلك. وان عدم التواصل بالحديث لم يكن مشكلة بالنسبة اليها.

كان قميصها وبنطالها قد اكتسبا رائحة الخيل. ولكن ملابسها التي أحضرتها معها كانت جداً محدودة، اذ انها حزمت امتعتها وهي تعتقد أنها ستكون مرافقة لفتاة مراهقة، ولم تفكر مطلقاً في أنها ستقدم عرض أزياء.

نظراً للثوب البالغ الأناقة الذي شاهدته على سيليا عندما لمحتها قادمة، وباعتبار الأناقة التي لا تشعر بها شائبة لماكسيميليان غرانت على الدوام، لم تظن انه سيرحب بوجودها بينهم على المائدة مرتدية السروال. ولكن

خزانتها كانت فقيرة بالملابس. ولم تكن متأكدة من أنها ستكون مقبولة منه في «السروال» الأسود، وكنزتها الصوفية الطويلة ذات اللون الزيتي التي تعكسه على عينيها.

كانت جين مازالت في حمامها عندما صعدت صوفي اليها لترى ان كانت جاهزة، لتعود بعد ذلك إلى غرفتها فتجمع ثيابها التي تتصاعد منها رائحة الخيل، ثم تحملها إلى غرفة الغسيل حيث ألقتها في الغسالة، لتعود بعدها للبحث عن جين مرة أخرى، إذ كانت هناك دقيقة واحدة باقية قبل أن تكتمل الأربعين دقيقة.

شكرت حظها أنها وجدت جين تهبط السلم. واتسعت عينا الفتاة الصغيرة عندما وقعتا عليها وقالت بغبطة: «إن خالتي سيليا ستكرهك عندما تراك.»

حسناً، ذلك ما كانت صوفي بحاجة إلى سماعه وسألتها غير مصدقة: «لماذا؟»

أجابت جين مسرورة: «لأن قوامك رائع، ولأنك صغيرة السن بحيث يلائمك هذا «السروال».»

لكن صوفي لم تكن قد لمحت في قوام تلك المرأة أي عيب مطلقاً.

أضافت جين وهي في غاية الابتهاج لما كانت متأكدة من أنه سيكون اجتماعاً خطراً بين خالتها وصوفي: «ثم أنك تبدين غاية في الجاذبية.»

كان واضحاً أن جين لم تقصد أن تكون لئيمة في هذه التوقعات، على الأقل ليس بالدرجة التي ظنتها بها صوفي، وقالت توّنبها: «جين!» وأدركتها الحيرة.

تساءلت حائرة عما إذا كان الوقت يسمح لها بأن تصعد ثانية إلى غرفتها لتغير ملابسها رغم انها كانت تعلم خلاف ذلك.

قالت جين متعمدة اغاظتها: «ولكنك تبدين كذلك.»

تنهدت صوفي بصبر نافد وهي تقول: «هذا مضحك. هيا بنا نواجههما قبل أن نقع في المتاعب لتأخرنا.»

هكذا، ومع أن الفتاتين وصلتا في الوقت المحدد لهذا الغداء المتأخر، فبسبب الحديث الذي دار بينهما في الردهة بشأن ملابس صوفي، شعرت بالارتباك من مظهرها.

كان ماكسيميليان وسيليا بمفردهما في غرفة الجلوس وبدا جلياً أن بول وايزمن كان غائباً. هل ذلك لأنه شعر بأنه الشخص الثالث غير المرغوب فيه؟

استدار الاثنان إلى الفتاتين عند دخولهما.

نظرت صوفي إلى ماكسيميليان بشيء من الانزعاج وهي تلحظ كيف ضاقت عيناه وهو ينظر إلى جين. ولكن، ليبدو عليه الرضى إزاء البنطال الأسود الذي كانت ترتديه وفوقه القميص الحريري الفضفاض بلون عينيها الزرقاوين. وعندما تحولت عيناه إلى صوفي بنفس السرعة، كانت هذه ابتدأت تشعر بالضيق والارتباك وهو يركز ناظريه على مظهرها ببطء.

أدارت ناظريها بسرعة لتجد نفسها تنظر مباشرة في أعماق عينين بنفسجيتين كانتا تشملانها بنظرات يتجلى فيها العداء الذي سبق وتنبأت جين به.

ووقفت سيليا برشاقة تجتاز الغرفة لتمنح جين قبلة صغيرة على وجنتها، ثم تستدير لتحدق في صوفي قائلة:

«إن والدك لم يخبرني انك أحضرت معك صديقة من المدرسة، يا جينيفر!»

إذن، فان جين كان معها حق بقولها إن خالتها ستكرهها حالاً. كانت صوفي تعرف سنها ولكنها، رغم هذا، لم تكن تبدو كتلميذة صديقة لجين، انها طبعاً لا تمانع في أن تبدو بالشكل الذي تبدو فيه جين، ولكن ليس من المعقول أبداً أن تبدو في السادسة عشرة من عمرها.

نهض ماكسيميليان ليقول برقة: «انها السيدة الشابة التي أخبرتك عنها، يا سيليا. انها هنا لتسلي جين.»

عرفت صوفي من نظرة الاستخفاف الشاملة التي القتها سيليا عليها، ان تلك المرأة تفكر في أنها قادرة على تسلية مراهقة.

كان على ماكسيميليان أن يختار كلماته بحذر أكبر... وربما تراه فعل ذلك متعمداً، فقد رأت لمعان الضحك في أعماق عينيه.

قال بسخرية يقدم الواحدة منهما للأخرى: «سيليا تايلور. صوفي غوردون.»

مدت صوفي يدها بأدب، قائلة: «السيدة تايلور.» ذلك انها رغم شعورها أن تلك المرأة لم تحبها، فانها لم تشأ أن تترك لماكسيميليان طريقاً لانتقاد تصرفها نحو سيليا تايلور.

فكرت في مبلغ غرابة هذه العائلة، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك. فالوالد والابنة كانا يتشابهان في الغطرسة إلى درجة لم يكونا يدركانها، وليس ثمة أمل في أن يفهم الواحد منهما الآخر بسبب تلك الغطرسة العمياء.

والآن، هذه المرأة التي هي شقيقة زوجته المتوفاة، التي تعتبر أن لها نوعاً من الحق في هذا الرجل وابنته مما يشكل تحذيراً لأية امرأة أخرى حتى لصوفي، كما يبدو، وهذا شيء مضحك بعيد عن الحقيقة، ولكن، أهو حقاً كذلك...؟

صححت لها المرأة كلامها بحدة وقد ضاقت عيناها وهي ترى احمرار وجنتي الفتاة: «الآنسة تايلور.»

قال ماكسيميليان وهو ينظر إلى أخت زوجته بعطف: «إن سيليا هي امرأة عاملة يا صوفي. فهي لم تتزوج بعد، ولم تشعر قط بحاجتها إلى رفيق دائم في حياتها.»

بدا في لهجته وهو يتفوه بالجملة الأخيرة نوع من الاغاظة لها.

قالت سيليا وهي تجلس إلى جانبه ببطء: «هذا ليس صحيحاً تماماً، يا ماكس.» مالت نحوه تبتسم له وهي تتابع قولها بصوت خافت: «إن الرجل المناسب لم يطلب مني الزواج حتى الآن.»

رفعت جين حاجبيها وهي تنظر إلى صوفي وكأنها تقول لها، لقد قلت لك هذا، وخفضت صوفي نظرها بسرعة لئلا تتهم بالتآمر مع جين، خاصة أمام ماكس الذي بدا عليه أن تلك النظرة بين الفتاتين لم تفته، ليرمقها بنظرة تتضمن عدم الرضى.

حولت صوفي نظراتها عنه بسرعة وحدة، وهي تبحث في ذهنها، عن موضوع تحول اهتمامه عن تلك النظرة التي حاولت جين أن تتبادلها معها. وأخيراً، قالت ببشاشة مصطنعة: «أي عمل تزاولين، يا آنسة تايلور؟» وفكرت وهي تقول ذلك، أن اعصابها ستشرف على الانهيار آخر

هذا الأسبوع إذا كانت الأمور ستسير على هذا المنوال.

أخذت المرأة تقيس صوفي بنظرها قبل أن تقول بملل: «إنني رئيسة تحرير مجلة أزياء.» وذكرت اسم مجلة معروفة لكل شخص.

كان لصوفي أن تخمن هذا، إذ أن كل شيء في هذه المرأة، من قمة رأسها ذي الشعر الأسود الناعم، إلى أخمص قدميها الرقيقتين، يتحدث عن جمال الفن والزي.

قالت صوفي بصوت خافت: «هذا جيد.» ولم تعرف ما تقوله غير ذلك في هذه المناسبة وهي التي لا يعوزها، في العادة، الكلام المناسب.

قالت المرأة: «انها هوايتي. ويسرني أن أعطيك أية أفكار او ارشادات في هذا الموضوع اذا كان هذا يهمك.»

آه، ما أغرب هذا. لم يحدث قط من قبل انها اكتسبت عدواً دون ان تنطق بحرف. وحسب ما تذكر، لم يحدث ان كان لها اعداء. على كل حال، كل ذنبها هذه المرة هو أنها موجودة في منزل ماكسيميليان غرانت.

إن رؤيتها لهما، هما الاثنين، بهذا الشكل الذي يدل على الالفة البالغة، لم يجعلها متأكدة تماماً ما إذا كان ماكسيميليان تتملكه نفس المشاعر.

أجابتها دون التزام منها بما عرضته عليها: «شكراً. أظن أن خالتي جاهزة للغداء الآن.» قالت ذلك شاعرة بالارتياح وهي ترى خالتها تشير اليها بذلك من خارج الباب.

قال ماكسيميليان: «ونحن جميعاً جاهزين لهذا.» وابتسم بحرارة لمدبرة منزله وهو يتابع: «شكراً يا سيدة كرين. وآسف لتكبيدك كل هذه المشقة.»

قالت سيليا وهي توجه إلى جين نظرة لاذعة: «إننا جميعاً تكبدنا المشقة هذا النهار وذلك بسبب سيدة صبية.»

هكذا، يبدو أن جين لن تفلت من العقاب لما فعلت. وشعرت صوفي بالعطف على الفتاة التي تضرج وجهها وهي تنظر إلى خالتها باستياء لاتيانها على ذكر الموضوع. ولكن عبوسها هذا لم يكن في مصلحتها إذ ان الغضب بدا على وجه أبيها الذي قطب حاجبيه وهو يقول: «إنك مدينة لخالتك بالاعتذار، يا جينيفر. إنني متأكد من أن سيليا عندها ما يشغلها الآن بدلاً من أن تقود سيارتها قادمة الينا لتعرف سبب اختفائك.»

ردت عليه جين ثائرة: «ما كان لها أن تأتي إلى هنا أبداً. إن منزلها على بعد عشرة اميال فقط من هنا، وليس في آخر البلاد.»

قال الأب: «جينيفر.» وكان صوته ما يزال هادئاً، ولكن التحذير الذي يتضمنه قد أصبح واضحاً. ولكن جين لم تكن لتبالي وهي ترد بعناد: «حسناً، كنت سأتصل بها هاتفياً في ما بعد ثم...»

قاطعها ماكسيميليان بصوت كالثلج: «ان اسمها هو الخالة سيليا. ظننت أن السماح لك بالتنزه على ظهر الخيل قبل الغداء قد يهدىء من طبعك على نحو ما. ولكن يبدو انك أصبحت أسوأ سلوكاً مما كنت. وربما اذا صعدت إلى غرفتك دون تناول الغداء، يمكن لذلك أن...»

قالت جين محتجة بحرارة وقد شع الغضب من عينيها: «هذا ليس عدلاً.»

لوى ماكسيميليان شفتيه قائلاً بسخرية: «ثمة كثير في الحياة ليس بعدل، يا جينيفر.»

قالت بصوت عالٍ ملؤه الاحباط: «أوه، لا أريد أن أسمع هذه المحاضرة. إنها حياتي أنا التي تتحدث عنها وليست حياتك ولا حياة الخالة سيليا. إنني أعاقب لا لشيء إلا لأنني لم أشأ أن أمضي العطلة في منزل الخالة سيليا...»

رد عليها أبوها بخشونه: «ليس لأجل هذا فقط.»

قالت جين ووجهها يلتهب بالغضب: «آه، كلا. كلا بالطبع. انني أعاقب لوجودي هنا فقط. أليس كذلك؟» وحدقت النظر في أبيها وهي تتابع: «ان الحياة لم تكن عادلة معك لأنها أزعجتك باعطائك ابنة، أليس كذلك؟ لأننا، نحن الاثنين، نعلم، انه لو كانت امي ماتزال حية لما كنت أنا هنا أبداً... بل نحن الاثنتين...»

«جينيفر...» في هذه المرة، لم يعد ماكسيميليان ليتحمل أي جدال من أي شخص.

امتلأت عينا جين بالدمع، بينما توتر فك ماكسيميليان وتطاير الشرر من عينيه. ونظرت اليهما صوفي وقد امتلأت نفسها أسى... ما أشد تشابههما هما الاثنين، وما أقسى غضبهما، وتمنت لو كان بامكانها ان تخفف عنهما وتهدئهما بأي شيء، ولكن ما تعرفه عن أي منهما كان قليلاً جداً. ولم يكن لديها فكرة عن مبلغ عمق مشاعر جين الكامنة وراء هذا الاتهام الصادر من أعماق قلبها.

فهي لم تستطع أن تفهم ما الذي يجعله يرسل ابنته للاقامة مع خالتها ما دامت لا تبتعد عنها اكثر من عشرة اميال، ومادام هو مقيماً في المنزل على كل حال، خاصة والخطة الأساسية كانت أن تقيم جين هذا الأسبوع في المنزل؟ هل غيّر ماكسيميليان خطته لأنه كان سيقيم هنا، ومن ثم فهو لا

يريد جين أن تقيم معه؟ وما معنى كلام جين عن أمها، ذاك؟ كان كل شيء معقداً أمامها مما لم يترك لها مجالاً للتصرف مع هذه الأشياء لما فيه الاصلاح.

لكن، بالرغم من عدم الجدوى الواضح في التدخل بين الأب وابنته، شعرت صوفي بأن عليها أن تحاول قول أي شيء لتلطف قليلاً من هذا الوضع، خاصة وأن سيليا تايلور لم تحاول ان تفعل شيئاً في هذا السبيل، بل كانت تراقب جين بعينين ضيقتين.

قالت صوفي بابتسامة مشرقة: «ربما من الأفضل أن نتناول جميعاً الغداء ثم نتحدث بعد ذلك...»

قالت جين بازدراء وهي تحدق في أبيها: «ألم تسمعي أبي، يا صوفي، يأمرني بالصعود إلى غرفتي وكأنني طفلة...»

قال ماكسيميليان بلهجته الباردة وقد بدا وكأنه لم يتزحزح عن موقفه بارسالها إلى غرفتها، قيد أنملة: «ربما إذا لم تتصرفي كطفلة، واريتني انك فتاة ناضجة شاعرة بالمسؤولية، عند ذلك لا أعاملك هذه المعاملة.»

نظرت صوفي برعب إلى جين تقف وتستدير، ثم تنطلق خارجة من الغرفة كالعاصفة، صافقة الباب خلفها بعنف.

ألا يرى ماكسيميليان أن تصرف جين بهذا الشكل ربما كان لأنها تظن أن هذه هي الطريقة الوحيدة لجذب انتباهه؟ وإلى أن يرى ذلك، فان سلوك جين لن يتغير أبداً.

نظرت صوفي إلى ماكسيميليان بعينين يطل منهما الألم، وهي تقول: «ربما علي ان أذهب خلفها و...»

قال ببرود وقد بدا التحدي في ملامحه القاسية: «كلا!

وإلى حد علمي، فأنت لم تأكلي شيئاً منذ ليلة أمس. أما جينيفر، فمن الأفضل أن تمنح وقتاً تفكر فيه بما تقوم به من أعمال، بدلاً من أن يوقعها طيشها في مصيبة اثر اخرى.»

قالت سيليا تايلور، وهي تنظر اليه بحرارة: «انني اتفق معك في هذا تماماً، يا عزيزي ماكس، إذ من الواضح ان جوزفين قد أفسدت الطفلة بالدلال، لتتركك تحل المشكلة بنفسك.»

فكرت صوفي في أنه إذا كانت هذه طريقة ماكسيميليان في حل هذه المشكلة، فهو لن ينجح بذلك. لأن ما كانت بحاجة إليه جين هو وقت ابيها واهتمامه، هذا اذا لم يكن استحسانه، وذلك بدلاً من تعارض ارادتيهما الدائم كما يبدو.

هذا لا يبدو انه سيحدث في المستقبل القريب. والآن، بذهاب جين، كان على صوفي ان تبقى لتتناول الغداء وحدها مع سيليا وماكسيميليان.

الفصل السادس

قالت صوفي عابسة وهي تحدث جين في غرفة نومها: «كفي عن هذه الابتسامة التي تقصدين بها أنه، (كان عليك أن تخبريني) أو استرد منك هذه السندويتشات.»

وضعت جين يدها على طبق السندويتشات لتمنعها من ذلك، وهي تلتهمها بنهم، بينما كانت جالسة على فراشها وهي تقول: «لا يمكنك ذلك. إنني أكاد أموت جوعاً.»

قالت صوفي وقد بدا عليها التأثر: «إنك تستحقين هذا.» ذلك أنها لم تغفر لهذه الفتاة الصغيرة أن تركتها وحدها أمام مصير كهذا.

كانت كل لحظة من هذا الغداء، أسوأ شيء يمكن أن يكون بالنسبة إلى صوفي، ولم يكن الطعام هو السبب. فقد كان طعام خالتها ميلي لذيذاً كعادته. وإنما كان الآخران هما اللذان أثارا اعصابها. حسناً... لقد أثارتها سيليا تايلور.

كانت صوفي صادقة مع نفسها وهي تعترف، في اعماقها، بأنها شعرت بالغيرة من تلك المرأة.

ولكن، لم يبد على ماكسيميليان أنه كان يشعر بسيليا، ذلك أن انتباهه لم يكن مركزاً على الحديث تماماً. ومع أنه كان يجيب سيليا بأدب كاف، على ما يبدو، وكانت صوفي ترجو أن يكون ذلك مع جين، وكيف يمكنه أن يردم تلك الفجوة بينه وبينها، والتي

كانت تبدو في اتساع دائم. ذلك أنه، إذا لم يوقف ذلك الآن، ففي سنتين أو نحو ذلك، لن يكون بالإمكان إصلاح ذلك الصدع الذي سيحدث.

مع أن صوفي رفضت الحلوى والقهوة، فإن وجبة الغداء تلك استغرقت من الوقت ما أتعبها حقاً، وقد رحبت تلك المرأة برفض صوفي للحلوى بتعليق ساخر بأنها يجب أن تحافظ على قوامها، وهذا شيء لم تهتم به سيليا نفسها بدليل التهامها لكمية ضخمة من فطائر حلوى الليمون التي صنعتها الخالة ميلي. ولم ترفض صوفي الحلوى لعدم رغبتها بها، أو أنها تريد المحافظة على رشاقتها، كلا، بل كان ذلك لأنها أرادت أن تهرب من تلك المرأة.

وقد قبل ماكسيميليان اعتذارها لترك المائدة، بإيماءة موجزة، لتسرع هي بترك الغرفة قبل أن يغير رأيه، متوجهة إلى المطبخ حيث صنعت بعض السندويتشات السريعة لجين ثم أخذت زجاجتي كولا لكل منهما... مما حمل خالتها على الاستياء.

لكن صوفي لم تستطع احتمال التفكير في أن جين ستبقى جائعة، خاصة وقد كانت مقتنعة بأن مضايقة سيليا تايلر لها هي التي جعلتها تفقد اعصابها بهذه الطريقة. إن جمال ذات الشعر الأسود كان كافياً لأن تجعل صوفي تصر بأسنانها غيظاً بعد ساعة واحدة من تعارفهما، فكيف بجين التي فرضت عليها مرافقتها كل حياتها.

هكذا، حملت صينية السندويتشات والشراب صاعدة من

السلم الخلفي وهي تسير بحذر كي لا تراها سيليا تايلور أو ماكسيميليان.

أشرق وجه جين، لمرأى السندويتش والشراب.

قالت جين بابتسامة ذات معنى وهي تلتهم السندويتش الثاني: «لا بد أن الخالة سيليا استعملت تأثيرها كالعادة، فهل تلوميني بعد أن رأيتها الآن، لأنني لم أشأ أن امضي عطلتي في منزلها؟»

كانت صوفي لا تزال حائرة لارغام جين على ذلك بينما منزل خالتها قريب من منزلهم، ولكنها لم تشأ أن تتكلم في هذا الموضوع مع جين في هذا الوقت. إذ من الأفضل لها أن تتجنب أي استياء أو هياج أعصاب، لفترة. ولا شك أن لدى ماكسيميليان أسبابه الخاصة التي جعلته يخطط للأمور بهذا الشكل. إنما في هذه اللحظة بالذات، لم تعرف صوفي في حياتها شيئاً أكثر بعداً عن المنطق من هذا.

في نفس الوقت، كانت تعرف أنها لا يمكن أن تشجع جين على أن تتصرف نحو خالتها بعدم احترام وقالت لها: «إن بإمكانها أن تعلمك الكثير عن الأزياء.»

ألقت عليها جين نظرة إشفاق، إذ لم تخدع بهذا لحظة واحدة، ثم قالت: «هل هذا أفضل ما تستطيعين قوله؟»

كان هذا فعلاً. إذ كيف يمكنها أن تجلس لتتحدث عن إمرأة أبدت لها الكراهية بوضوح، وكذلك بطريقة لبسها؟ امرأة بدا واضحاً من طريقة ابعادها لها عن الحديث أنها لا تحب الجلوس إلى الغداء مع أحد (الاجراء)؟

قالت: «لا أظن أننا ينبغي أن...» وسكتت فجأة لدى سماعها قرعاً على الباب. وبسرعة، أخفت جين

السندويتشات التي بقيت وكذلك الشراب تحت السرير، ثم ابتلعت ما في فمها وهي تتوجه نحو الباب تفتحه بعد ما ألقت على صوفي نظرة ألم.

شعرت الاثنتان بالارتياح وهما تريان الخالة ميلي تقف عند الباب. ونظرة واحدة إلى وجه الخالة ميلي عرفت من ملامحها أن هذه ليست زيارة عادية.

قالت لجين عندما عادت هذه تخرج طبق السندويتشات والشراب من تحت السرير وتتابع الأكل: «إنك ستسببين لنا، أيتها السيدة الصغيرة، المتاعب من والدك إن علم بأننا أحضرنا لك الطعام إلى هنا رغم اوامره بأن تبقي دون طعام هذا النهار.»

قالت صوفي بهدوء وهي مازالت ذاهلة للتعبير البادي على وجه خالتها: «تذكري يا خالتي أنني أنا التي أحضرت الطعام لها وليس أنت.» وفكرت بحيرة متسائلة عما إذا كان الطعام والشراب فقط هو ما ساءها، فقد سبق وقالت شيئاً بهذا الموضوع في المطبخ. فما الذي حدث الآن؟

استدارت خالتها نحوها بحدة قائلة: «ما الذي عليك أن تقومي به الآن؟»

عبست هذه، إذ كانت تنتظر أن تخبرها خالتها بذلك. وسألتها: «اتقصدين ما عليّ أن أقوم به بجانب ما أحضرت لجين؟»

قالت خالتها بحدة: «هذا هو المفروض ولكن، كان على السيد غرانت أن يخبرني بهذا أولاً إذا كان هو الآمر...»

قالت صوفي وهي تهز كتفيها بعدم اكتراث: «إذن، فليس هنالك شيء على حد علمي.»

فتوترت شفتا خالتها وهي تقول: «حسناً، لقد طلب مني السيد غرانت أن يراك في مكتبه حالاً. وهذا يعني أنك لا بد اقترفت شيئاً.»

فكرت بتثاقل، إنه المكتب مرة أخرى، ولكنها حسب ما تذكر، لم تقترف أي إثم يستحق أن تعاقب عليه. على كل حال، ليس في الفترة القصيرة الماضية! وطبعاً، لا يتعلق بشيء قد تكون قالته على مائدة الغداء. فهي لم تكد تتكلم ذلك الوقت. كما أن تصرفها لم تشبه شائبة، حتى عندما كان الحنق يستولي عليها للملاحظات المسيئة التي كانت توجهها إليها سيليا.

وقفت ببطء وهي تحاول أن تنظر إلى الجهة الايجابية من الأمر. فقالت: «ربما ليس ثمة شيء، يا خالتي. ربما كان السيد غرانت يريد أن يتباحث معي في تدابير الأسبوع القادم، ولا أحد يعلم أنه لم يكن لدينا ما يكفي من الوقت لهذا، قبل الآن.»

بدا على خالتها شيء من الارتياح وإن بقي العبوس على ملامحها، وهي تسألها: «أتظنين أن هذا ما يمكن أن يكون؟» كان في لهجتها تردد. وكانت صوفي ترجو أن يكون الأمر كذلك حقيقة وإن كانت بعيدة طبعاً، عن التأكد ولكنها أجابتها: «لا بد أن هذا هو الأمر، يا خالتي!»

قالت خالتها وهي تستدير مبتعدة: «حسناً، إذهبي حالاً يا صوفي.»

لكن جين لم تكن متفائلة، فقد قطبت جبينها قائلة: أتظنين هذا هو الأمر؟»

أجابت صوفي عابسة: «أرجو ذلك.» ولكنها، في الحقيقة، لم تكن متيقنة في صدق تعليلها للأمر.

قالت جين بلهجة حازمة وهي تضع طبق السندويتش والشراب، جانباً: «إنني قادمة معك. وإذا كانت خالتي سيليا... كلا.» وعبست وهي تنظر من نافذتها إلى الطريق وهي تقول: «يبدو أنها ذهبت. فإذا كانت قد قامت بأي أمر آثم، لبقيت هنا لترى النتيجة.»

قالت صوفي بأسف: «لا أظن قدومك معي لمقابلته، هي فكرة صائبة، مع أنني شاكرة لك فكرتك هذه.»

وابتسمت مظهرة ثقة بنفسها لم تكن لتشعر بها في الحقيقة.

لكن، سرعان ما تلاشت ابتسامتها حالما أصبحت في الردهة. وعندما وصلت إلى مكتب ماكسيميليان وجدت بول وايزمن هناك واقفاً بجانب النافذة، عند ذلك، عرفت أنها كانت محقة في توجسها خيفة. ذلك أن ماكسيميليان أبقى حارسه معه في المكتب، رغم أنه من المشكوك فيه أن يحتاج إلى ذلك. فما الذي يجري هنا؟

ساد العبوس ملامح ماكسيميليان وهو يراها تقف عند الباب، فقال ببرود: «أدخلي يا آنسة غوردون.»

استدارت صوفي وقد شحب وجهها، واتسعت عيناها كبحيرتين خضراوين تنضحان ألماً لهذا الهجوم.

استمر ماكسيميليان ينظر إليها عابساً دون أن تؤثر فيه الصدمة التي أحدثها لها. ثم قال للرجل الآخر بخشونة ونظراته الباردة لا تتحول عن وجه صوفي المصعوق: «اتركنا الآن، يا بول.»

لم تكن صوفي تستمع حقيقة إلى تلك المحاورة بين الرجلين. ذلك أن ذهنها كان يعمل بسرعة متسائلة عما جعل ماكسيميليان يعلم هذا عنها. فهي، منذ عامين تقريباً، لم يعد اسمها رسمياً مقترناً.

قال ماكسيميليان برقة أكثر هذه المرة: «اجلسي.» وعندما لم تتحرك، قال بصبر نافد: «إجلسي قبل أن تسقطي على الأرض.»

جلست صوفي شاعرة بعدم استطاعتها القيام بأي شيء آخر، لم يكن الأمر انها لم تخدع أحداً من قبل بالنسبة إلى زواجها السابق، ولكنها، لم تذع هذه الحقيقة كذلك. ولكن يظهر أن ماكسيميليان لم يكن يريد أن يظل هذا الأمر سراً.

أخيراً قال وهو يرى بعض اللون يعود إلى وجنتيها: «حسناً؟»

ما الذي يريد منها أن تقول؟ وقالت بلهجة متصلبة: «إنني... إنني عدت إلى اسم اسرتي بعد أن مات زوجي.»

قال بدقة: «ثمة شيء أكثر من هذا يا صوفي.» كان وهو يقول ذلك، ينظر في ورقة أمامه على المكتب. وتابع يقول: «يقولون هنا...»

قالت غير مصدقة: «ما هذه؟» ومالت إلى الأمام تختطف الورقة من أمامه لتقرأ بسرعة ما كان مطبوعاً عليها بالآلة الكاتبة، ثم رفعت ناظريها إليه وقد تجلى فيهما الإتهام.

لم يتحرك ماكسيميليان، ولم يحاول أن يمنعها، وكان ينظر إليها بعينين باردتين. وقالت: «ليس لك الحق في ذلك. ليس لك الحق أبداً.» ذلك أن كل شيء كان مكتوباً هناك.

كل دقائق حياتها. وضغطت بيدها على الورقة مجعدة طرفها، وهي تقول: «من أين أتيت بهذه؟»

هز كتفيه بعدم اكتراث قائلاً: «بول...»

قالت باشمئزاز: «مساعدك المزعوم؟ كان يجب أن اتكهن بذلك. لا عجب، إذن، انه لم يكن معنا على مائدة الغداء، فقد كان مشغولاً بتجميع هذه الأشياء.» ورمت بالورقة تعيدها إلى مكتب ماكسيميليان قائلة: «يجب أن تمنحه علاوة، يا سيد غرانت، فمن الواضح أنه قدير جداً في هذا العمل.»

قال ماكسيميليان بحدة: «صوفي، هل لك أن تهدئي؟ إننا بذلك يمكننا أن نجد حلاً لهذا الوضع.»

قالت وهي تنظر إليه باستياء: «وماذا هناك لكي تجد له حلاً. يبدو أنك استعلمت عني كل هذا لكونك حذراً جداً ممن يقترب من أسرتك.» وهزت رأسها وهي تتابع: «ويبدو أنني غير مناسبة كلياً.»

قال بضيق وقد بدا أنه غير معتاد على أن يفلت الوضع من يده بهذه الطريقة: «إنني لم أقل ذلك.»

لكن صوفي لم تهتم بشعوره في تلك اللحظة، فوقفت فجأة وهي تقول: «لا ضرورة لأن تقول ذلك. لا تقلق، يا سيد غرانت، فإنني سأعفيك من مشقة صرفي من الخدمة، فأرحل بهدوء، وكل ما أرجوه منك هو ألا تلوم خالتي ميلي لأي شيء من هذا، إذ أنها كبقية أهلي، لم تكن موافقة على هذا الزواج منذ البداية.» وتدفقت الذكريات على صوفي، ولكن تمنّيها لو أنها استمعت إلى نصائحهم قد فات أوانه. فقد كانت تظن بكل ما في

الشباب من عناد، أنها اكثر حكمة منهم جميعاً، وهكذا تعلمت من ذلك الدرس القاسي، أن من هم أكبر سناً، هم أكثر حكمة وتجربة. ومن المفيد أن يستمع الشخص إليهم أحياناً.

توتر فم ماكسيميليان وهو يقول مستنكراً: «ليس عندي مطلقاً النية في لوم خالتك في أي شيء. فقط حيث أن...»

أومأت صوفي برأسها راضية وهي تقول: «شكراً لك. سأخبر جين أنني غيرت خطتي، إذا شئت أنت ذلك. فأنا لا أريد أن أكون سبباً في أي احتكاك بينكما.» إنها وجين، لم تتعارفا إلا منذ فترة قصيرة، ولكنها كانت واثقة أن الفتاة قد أحبتها بقدر ما كانت هي ستحبها.

قال بحدة: «أشكرك. انني أعرف كيف أتصرف مع ابنتي.»

إن ما لاحظته صوفي هو أنه، مع قدرته الفائقة على التعامل مع أكثر الأمور، فإنه بالنسبة إلى ابنته، كان فاشلاً تماماً. وقالت وهي تهز كتفيها: «سأبت بالأمر معها على كل حال. والآن، عليّ أن أذهب وأحزم أمتعتي.»

انفجر فيها ساخطاً: «إنني لم أقل انني أريدك أن ترحلي.» ووقف وقد نفد صبره، وتساقط شعره الأشقر على جبهته، بينما تقبضت يداه إلى جانبيه.

قالت بأسف: «أردت أن أجنبك الازعاج ولكن بالرغم مما تقول، فأنا أريد أن أقدم لك نصيحة واحدة.» وبدا التأثر في صوتها وهي تقول هذا. فهي لم تكن تريد أن تبتعد عن كل

هذا قبل أن تستخلص منه شيئاً، إذا لم يكن لنفسها فلأجل جين.

بقي جامداً في مكانه وقد ضاقت عيناه، يكرر قولها بصوت هادىء خطر: «نصيحة؟»

أومأت برأسها عابسة وهي تقول: «إذا بقيت على معاملتك هذه لجين، وهي لا تحب اسم جينيفر بالمناسبة، إن استمريت في معاملتها كطفلة، فهي ستستمر في التصرف كطفلة، طفلة مدللة بشكل سيدة، وثائرة في السادسة عشرة. تذكر أنني أنا تزوجت في الثامنة عشرة.»

قطب جبينه بشدة وهو يسألها بصوت خشن: «أتريدين أن تقولي ان جينيفر ابنتي، يمكن أن تفعل شيئاً كهذا هي أيضاً.»

هزت كتفيها قائلة: «لا أدري. فأنا لا أعرف إن كان ثمة رجل في حياتها حالياً. كل ما أعرفه أن عندها عقلاً محدداً خاصاً بها، ولا يجب أن تستخف بذلك. فقط جرب أن تفكر بنفسك عندما كنت في سنها هذا.»

بدا عليه الوجوم برهة ثم قال: «إنك تعرفين ابنتي منذ...» ونظر في ساعته ليتابع بسخرية قوية «منذ ثلاث ساعات. ولكنني أظن أنني، بعد ستة عشر عاماً، أعرفها اكثر قليلاً مما تعرفينها.»

لقد تجاهل ملاحظتها التي أدلت بها وهي أن جين تشبهه.

ألقت إليه صوفي بنظرة حزينة وهي تقول بهدوء، هازة كتفيها باستسلام: «أحقاً؟ إذن، لم يبق لدي ما أقوله.»

عندما استدارت لتخرج، ناداها قائلاً: «صوفي.»

أجابت، واغرورقت عيناها بالدموع التي ظلت تكافحها بعض الوقت: «آسفة. عليّ أن أذهب الآن.»

هتف: «لحظة من فضلك.»

قالت: «أرجوك.» كانت مستميتة لكي تبتعد عنه قبل أن تنهار كلياً.

«استمعي إليّ...»

لم تستطع رؤيته. فقد أعمتها الدموع تماماً الآن، وشدت نفسها بعنف لتركض هاربة من الغرفة قبل أن تنهار كلياً.

لم تكن مشاعرها بهذه الحدة من قبل، فقد تعلمت أن لا تكون كذلك، إذ لم تكن لتطيق احتمال مثل هذه الحدة في الأحاسيس. إنها تعرف أن ذكر زواجها هو الذي فجر في نفسها هذه المشاعر. الزواج في الثامنة عشرة، ذلك الزواج الذي ندمت عليه.

لقد انفصلا بعد أقل من ستة أشهر. لتصبح أرملة في العشرين من عمرها قبل أن تقدم طلباً بالطلاق، لقد اسفت لموت مالكولم بالطبع، وذلك من الناحية الانسانية، أولاً لأنه مات، وثانياً لأنه مات وهي مازالت زوجته وهذا معناه أن ديونه ستلحقها وستكون ديونها هي..

كانت قد التحقت بالدروس الجامعية الحرة قبل سنة من موت مالكولم. وجاءها موته بصدمتين الأولى هي صدمتها بموته، أما الثانية فهي أن تبدو حياتها، التي كانت الآن قد سارت بها هادئة نحو وجهة معينة، لكي تسدد بعض ديونه، وفي نفس الوقت، تواصل دراستها الجامعية.

في خلال سنتين، استطاعت أن تنظم حياتها يوماً بعد يوم. فتتخذ أي عمل يقدم لها وفي أي مكان، مثل هذا العمل

حالياً. وكان عليها أن تكافح عندما لا تجد العمل. كل ذلك قد حدث فجأة، نتيجة غلطة المراهقة في زواجها من مالكولم، هذه الغلطة التي عادت بظلها البشع الآن، بعد ما ظنت أن الماضي قد انتهى للأبد.

كيف تجرأ ماكسيميليان على البحث عن ماضيها بهذا الشكل. ومن يظن نفسه وأسرته، لكي يدس نفسه في حياة الآخرين؟ حسناً، مهما تكن اسرته تلك، فهي لا تريد أن تشاركه فيها. في الماضي كان الناس أفضل، كانوا يحكمون عليها حسب استحقاقها، وليس على ماضيها أو ماضي زوجها، وإذا لم يكن في استطاعة ماكسيميليان غرانت أن يفعل ذلك، فهذا ذنبه وليس...

«ماذا جرى؟»

لم تكن قد رأت جين التي كانت تنتظرها في الردهة، وذلك لشدة استغراقها في التفكير.

نظرت إليها جين بإمعان، وبدا أن ما رأته لم يعجبها فعادت تقول: «صوفي، أخبريني ماذا جرى.»

لقد بدا لها التشابه بين الأب والابنة كبيراً في هذه اللحظة، فقد كان الاثنان متعجرفين إلى أقصى حد. فخلصت ذراعها من يد الفتاة، ونظرت إليها.

وردت عليها بحدة: «إسألي أباك، يا جين.» لقد نسيت تماماً في هذه اللحظة، أنها كانت قد قالت لماكسيميليان أنها ستبت بالأمر بينها وبين جين قبل أن ترحل. وأضافت بمرارة: «أو بول الذي يبدو أن عنده كل الأجوبة.»

هزت جين رأسها وقد قطبت جبينها بحيرة وقالت: «إنها المرة الثانية التي تذكرين فيها شخصاً يدعى بول،

ولكنني لا أعرف شخصاً بهذا الاسم. هل أنت متأكدة من انك...»

ابتدأت صوفي تشعر بشيء من العصبية فقالت: «اسمعي، إن اسمه لا يهمني. أرجوك أن تذهبي وتتحدثي إلى أبيك يا جين إذا شئت أن تعرفي أي شيء. إن عليّ أن أذهب وأحزم أمتعتي.»

بدا الذهول على وجه جين وهي تردد: «تحزمي امتعتك؟ أنا سأذهب وأكلم أبي.»

أومأت صوفي برأسها قائلة: «أتمنى أن تفعلي ذلك.» واستدارت متجهة نحو قسم الخدم خلف المنزل متجنبة المطبخ الذي كانت متأكدة أن خالتها مشغولة فيه، وكذلك ماي الفتاة التي تأتي من القرية كل آخر اسبوع للمساعدة في المطبخ. لقد كان من الصعوبة شرح كل ذلك لخالتها، إنها ذاهبة. كلا بل هي باقية، بل هي ستذهب، وهي لا تشعر بالرغبة في شرح كل ذلك الآن.

تهالكت على السرير في الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفة خالتها والتي خصصت لها، وذلك لكي تلتقط أنفاسها قبل أن تبدأ بحزم حقيبتها.

لقد شعرت بأن قصة زواجها التعس قد أصبحت أمام جميع من في المنزل. ذلك أن ماكسيميليان سيخبر جين السبب في كونها غير مناسبة. ويخبرها بأن زوج صوفي كان مغامراً، وأنه عندما مات، تحطمت معه الشيء الوحيد الذي له قيمة عنده، وهي سيارة رياضية. وهذا ما لم يكن يعرفه أحد بما فيهم صوفي نفسها عندما قابلت مالكولم لأول مرة.

لقد كان مالكولم يتظاهر بالثراء، فهو مسرف متلاف،

وكانت حفلة زفافهما مثالاً لذلك. فقد دعا كل اصدقائه إلى حفلة الاستقبال التي اقامها في أفخم فنادق لندن، لتبقى صوفي، بعد ذلك، اسابيع وشهوراً تكافح في سبيل سداد فواتير تلك الحفلة. وكان جواب مالكولم لها، كلما أتت على ذكر تلك الفواتير، هو أنه في ضربة حظ واحدة في النادي سيتمكن من سدادها. وكانت مسألة النادي هذه مفاجأة أخرى لصوفي، بعد ما رأت أن مالكولم يذهب إلى هناك خمس ليال في الأسبوع ويبدو أن هذه كانت عادته حتى عندما كانا يخرجان معاً. فقد كان يذهب إلى هناك بعد أن يوصلها إلى البيت في نهاية السهرة.

فقط ضربة الحظ تلك لم تأت إليه أثناء زواجهما القصير الأمد. ومع مرور الأسابيع، أخذت طباع مالكولم تزداد حدة واكتئاباً، وفي النهاية، أخذ يلقي اللوم لسوء حظه هذا على زواجه وعلى صوفي نفسها في النهاية.

بعد هذا الاتهام، مرت أسابيع اكثر سوءاً، بعد ما وجد هو فيها ما يلقي عليه أسباب خيبته وفشله، وازداد غضباً عندما توقفت عن حبه، ومن ثم أخذت تتحمل شتائمه صابرة إلى أن تطور به الأمر إلى استعمال يده بالضرب.

لقد تحملت صوفي شتائمه أسابيع عديدة، ولكنها لم تستطع الصبر على ضربه لها، وعلمت، عند ذلك، أن أوان رحيلها عنه قد حان. وتحول الحب الذي كانت تشعر به نحوه في بداية الزواج، إلى خوف مريع كلما اقترب منها. وهكذا تركته نهائياً. حتى نظرات أولئك الذين عارضوا زواجها من رجل لاتكاد تعرفه، لم تجعلها تغير رأيها

وتعود إليه في محاولة لانقاذ زواجها. لأن زواجها هذا أصبح يمثل لها عذاباً دائماً لم تكن لتستطيع تحمله أكثر مما فعلت.

بعد ذلك بشهور عديدة، اصبح يعاني من مرض لم يكن ليشفى منه إلا بإرادته هو، وهذه الإرادة لم يكن يملكها. ولم يصلح الحال بينهما، بعد أن تركت صوفي المنزل، حين ابتدأ مالكولم يربح مرة أخرى، ولكنها لم تكن بالأرباح الكبيرة التي بإمكانها أن تسدد تلك الديون التي كانت تثقل كاهليهما. وكانت كافية لأن تقنعه بأنه كان على حق في اعتقاده بأن صوفي كانت شؤماً عليه.

لكن صوفي لم تهتم برأيه فيها عندذاك، ذلك أن الأوان كان قد فات على إنقاذ ذلك الزواج. واستمرت تكافح لتسديد تلك الديون التي عليهما، وحدها، شاعرة بأن واحداً منهما، على الأقل، يجب أن يقدم على ذلك. وهكذا ابتدأت تتخذ أي عمل تجده، لكي تسدد تلك الفواتير وتعيل نفسها، إذ كانت تعلم أن ليس باستطاعة والديها ذلك، وأن عليها هي نفسها أن تحاول الخروج من تلك الورطة التي أوقعت نفسها فيها.

هكذا، نظمت حياتها بطريقة جعلتها تسدد تلك الديون المتراكمة، وفي نفس الوقت تمكنها من الاستمرار في دراستها الجامعية الحرة، ولم يكن هذا بالتدبير المحكم تماماً، ولكنه كان أفضل شيء استطاعت القيام به. والآن، يأتي ماكسيميليان غرانت، لسبب ما، فيلقي كل هذا في وجهها كشبح مفزع.

حسناً، إن الجلوس والنواح على ما حدث الآن، لم يكن يفيد شيئاً. إن عليها أن تبدأ بحزم أمتعتها، للحاق بالقطار.

وقفت وقد صممت أنها كلما اسرعت في الأمر، كان ذلك أفضل.

عندما أنهت حزم أمتعتها، أدركت أن المشكلة الوحيدة الآن هي أن بنطالها وقميصها اللذين وضعتهما في آلة الغسيل، بعد تلك النزهة على ظهر الحصان، كانا ما يزالان هناك ولا شك انهما مبللان بالماء. وكان هذا أمراً سيئاً حقاً، فهي لم تكن تملك من الملابس بحيث تستغني عنهما. وليس لها إلا أن تضعهما في كيس من البلاستيك ثم تحمله بيدها.

كان مسك الختام في ذلك النهار غير العادي، أن وجدت قميصها وبنطالها، في الغسالة وقد تشابكا مع قميصين أبيضين من قمصان ماكسيميليان غرانت. ولما كان قميصها الأحمر من قماش رخيص فقد تحلل لونه ليصبغ القميصين بلون وردي جميل.

الفصل السابع

كان أول ما تبادر إلى ذهن صوفي هو الذعر. ألم يحن لهذه السلسلة من المصائب التي توالت عليها منذ وصلت إلى هذا المنزل أن تنتهي؟ ثم أخذت تفكر في أنها ربما لم تتسبب في صبغ هذين القميصين، وربما كان لونهما الأصلي كذلك. ولكن، كيف لها أن تتصور ماكسيميليان غرانت في قميص وردي؟ بل قميصين من نفس اللون؟ وبدا لها الأمر بعيداً عن الاحتمال. وماذا إذن، بالنسبة إلى بول وايزمن؟ وبدا هذا الاحتمال أكثر بعداً. فقد كان ذوق الرجل الآخر في ملابسه ربما أكثر تحفظاً من ذوق ماكسيميليان. هذا إلى أن بول وايزمن قد وصل هذا الصباح فقط ومن غير المحتمل أن يكون أول ما يفعله هو أن يضع قميصين في الغسالة.

وفي النهاية أدركت أن عليها أن تواجه الحقيقة وهي أنها صبغت قميصي ماكسيميليان الثمينين، وربما المصنوعتين من الحرير، فهي تعرف حظها، صبغتهما بلون وردي زاه.

وفي الحقيقة، أقرت بعصبية، أن ما حدث كان شيئاً حسناً حقاً. ذلك أن اللون لم يكن ملطخاً بشكل سيء، ولكنه كان لوناً زاهياً جميلاً شاملاً بحيث كان يبدو وكأنه لونه الأساسي. ولكنها، طبعاً، لم تفكر مطلقاً في أن ماكسيميليان سيبتهج بهذه الحقيقة، أو أنه كان يقبل قميصاً بهذا اللون بين قمصانه.

سمعت ضجة في المطبخ الملاصق لهذه الغرفة، وبسرعة أدخلت القميصين في قميصها، ووضعت الجميع تحت إبطها قبل أن تخفي ابتسامة على شفتيها وهي تدخل المطبخ. وتبخّر تظاهرها بالشجاعة وهي تجد ماي بدلاً من خالتها في المطبخ. ولم تصدق أن شيئاً، في النهاية قد حدث لمصلحتها، وأنها ارتاحت مؤقتاً من خالتها، وكانت تعلم أن هذه الراحة مؤقتة، ولكن شيئاً هو خير من لا شيء.

أجفلت ماي للابتسامة الواسعة التي منحتها صوفي لها، وأخذت تسرع في إنجاز الفطيرة التي كانت ستضعها في الفرن.

بدا أن حسن حظ صوفي استمر ملازماً لها عندما عادت إلى غرفتها دون أن تصادف أحداً.

ولكنها كادت تنهار من هول الصدمة، عندما استدارت، بعد اغلاق الباب خلفها، لترى ماكسيميليان.

سقطت من يدها حزمة الثياب التي كانت تحملها، بعد إذ رفعت يديها لرؤيته، وكأنها تحمي نفسها وهي تشهق من هول المفاجأة.

قال ماكسيميليان وهو يقف ببطء وعيناه لا تبارحان وجهها الشاحب: «آسف. لم أكن أنوي افزاعك.»

تمالكت صوفي نفسها بسرعة. فهذا بيته على كل حال، وله كامل الحرية في دخوله ساعة يشاء. ولكنها لم تقبل به في غرفة تسكنها هي. إلا إذا كان يريد أن يطمئن إلى رحيلها.

وقالت بحدة: «حسناً، لقد أفزعتني.» والتقطت حزمة الثياب عن الأرض لتلقي بها على السرير، ولحسن الحظ، بقي القميصان في داخل قميصها.

توترت شفتاه إزاء لومها الضعيف ونفاد صبرها، وقال بصوت خشن: «ولكنني اعتذرت.»

لوت شفتيها قائلة: «نعم، إنك فعلت ذلك، والمفروض أن أشعر بالشكر لهذا...»

قال: «إنني أدرك أنه ربما كان الحق معك في استيائك هذا، يا صوفي، ولكن...»

قالت بحدة: «أحقاً ذلك؟ صدقني يا سيد غرانت، إنه مما يبعث على التقزز هو أن تعلم أن حياتك قد وضعها شخص آخر تحت المجهر.»

«ثمة سبب قويّ لهذا العمل.»

قالت ساخرة: «إنني متأكدة من ذلك. وإنني لاتساءل ماذا يكون الأمر في ما لو وضعت حياتك للفحص...»

قاطعها بجمود: «إننا لا نتحدث عن نفسي.»

قالت: «وهذا هو الشيء الذي يبعثني على الاشمئزاز.»

بدا الغضب على وجه ماكسيميليان وهو يقول: «إنك لا تعرفين شيئاً عن هذا.»

قالت بتحدٍ: «إنني أعلم أن عليّ أن أدين الشخص لما يبدر منه وليس لما يذكر عنه... إنك شخص بارد.»

توترت كل عضلة في وجهه، وضاقت عيناه وهو يقول مردداً: «بارد... بارد... أهكذا تعتبرينني؟»

خمد غضب صوفي قليلاً وقالت: «سيد غرانت...»

قال بصوت خافت: «لا تحاولي استعمال الكلفة بيننا. قولي ماكس أو مكسيميليان.»

فهزت رأسها قائلة: لا أظن يا مكسيميليان أن...»

قال: «لقد كنت أمنع نفسي بصعوبة عن اعجابي بك.»

هذه الكلمات كانت هي نفسها التي سبق وقالتها جين لها. فمن أين تعلمت هذه اللغة؟

لقد تقابلا للمرة الأولى، أمس، وقد تواترت الأحداث منذ ذلك الحين. ومع أن صوفي أدركت أن الوقت ما زال مبكراً لكي تعرف حقيقة مشاعرها وما الذي تفعله. ذلك أنه لم يدخل حياتها رجل منذ فشل زواجها من مالكولم الذي كان أول رجل تعرفه.

وقد اصبحت الآن تعرف أنها لا يمكن أن تسلم مشاعرها بسهولة لأي رجل مهما كان شعورها تجاهه. وبما أنها سترحل بعد دقائق، فإن ذلك الوقت لن يأتي أبداً.

كان مكسيميليان يقول: «لم اكن أتوقع أن أعجب بك، يا صوفي. لقد جئت فقط لكي أخبرك أن تبقي هنا...»

تراجعت صوفي خطوة إلى الوراء وهي تقول: «أيضاً؟» وحدقت فيه غير مصدّقة وهي تتابع: «انني لا أصدقك. ما الذي حدث لكي تغيّر رأيك الآن؟ هل قالت لك جين شيئاً؟»

قال بحزم وقد بان في عينيه لمعان خطر: «لقد أخبرتك أنني جئت إلى هنا لأقول لك ان تبقي.»

وتوترت شفتاها وهي تقول: «إنها إذن جين مرة اخرى. ما الذي قالته هذه المرة؟ هل دخلت المكتب وضربت قدمها في الأرض تطلب...»

قال يذكرها ببرود: «إذا أنت راجعت ما تحدثنا به في المكتب، يا صوفي، لتذكرت أنني لم أطلب منك الذهاب.»

«ولكنك لم تمانع في ذهابي.»

«لأنني لم أتوقع أن تعودي مباشرة إلى غرفتك لتحزمي أمتعتك وتذهبي.»

أرغمت نفسها على التنفس بعمق، وفارقها بعض توترها، وما لبثت أن تنهدت وهي تسأله: «وما الذي تظن أن في استطاعتي عمله؟ إنك بذلك التقرير قد جعلت حياتي مكشوفة.»

همهم قائلاً: «إنني أدرك ذلك. ولهذا صممت على أن أتركك لفترة قبل أن أشرح لك أن التقرير لم يغير أي رأي سبق واتخذته بشأنك.» كانت كلماته هذه غامضة لأنه كان واضحاً أن ليس في نيته التوسع في هذا الموضوع، في الوقت الحاضر. وتابع قائلاً: «باعتبار ظروف زواجك، وموت زوجك يبدو مفهوماً تماماً. ورغبتك في العودة إلى اتخاذ اسم عائلتك. مع أنك لم تكوني صادقة تماماً في هذا أيضاً، أليس كذلك؟»

غصت بريقها وهي ترطب شفتيها الجافتين. لقد كشف هذا التقرير، كما سبق وقالت، كل حياتها. وقالت: «إنني...»

فجأة، فتح الباب دون إنذار، لتندفع جين إلى الغرفة، وكان أول ما فكرت فيه صوفي هو أن تشكر حظها.

نظرت جين إلى أبيها وقالت: «حسناً، هل هي باقية؟»

نظر إليها باستياء للهجتها الخالية من الاحترام وقال: «جينيفر... إنها اللايدي صوفي غوردون.» وتجاهلت جين والدها، ونظرت إلى صوفي بإعجاب وقد أشرق وجهها بشعور الارتياح وهي تقول: «ما أجمل هذا. لماذا لم تخبريني أن أمك وأباك كانا (إيرل) و (كونتيسة)؟ أحقاً يا صوفي؟ أيجب علي أن أدعوك اللايدي صوفي بعد الآن...؟ المفروض حقيقة أن...»

قاطعها والدها ساخراً ببرود: «انني متأكد من أن صوفي، لو تركت لها فرصة للكلام، لاستطاعت أن تجيب

على واحد على الأقل من أسئلتك هذه التي لا معنى لها.»

بدا على جين وكأنها تريد أن تجادل في صحة هذا الاتهام، ولكن التعبير الخطر الذي بدا في ملامح أبيها، أشعرها أن من الأفضل لها أن تسكت رغم أن التمرد كان مايزال بادياً في عينيها.

اللايدي صوفي غوردون... نعم، كانت هي هذه. ولكن اللقب، دون ثروة تسنده، لا معنى له، وأثناء آخر مشاجرة بينها وبين مالكولم، أخبرها بكل قسوة، أن لقبها هذا كان هو السبب الأساسي الذي جعله يتزوجها وأن (زوجتي اللايدي صوفي) قد جعلته يدخل أماكن لم يكن ليستطيع من قبل أن يدخلها وأن حماته وحموه «الإيرل والكونتيسة» منحاه المقدرة على أن يخدع الناس. ومن الواضح أنه لم يكن بين هؤلاء الناس من يصدق أن هذا «الإيرل» و «الكونتيسة» لم يكن عندهما ما يسدان به رمقهما سوى ريع الكتب التي كان أبوها يؤلفها عن علم الآثار. والذي لم يكن ليسمح لهما بأي نوع من الرفاهية.

كانت الشقيقتان، ميلي وماري، تعملان وهما في سن المراهقة، وكانت الاثنتان مستخدمتين في منزل الإيرل والكونتيسة، جدي صوفي، ومع أن هذين لم يكونا يملكان سوى القليل من المال، إلا أن الذعر قد اصابهما عندما أعلن ابنهما الوحيد أنه وقع في غرام الخادمة وأنه ينوي الزواج منها. ولكن، عدا عن اللقب، فإن همفري، ابنهما، لم يكن يملك المال الذي يجعله أهلاً للزواج من فتاة من طبقته، وعلى كل حال، فقد كان صمم على الزواج من ماري سواء بموافقة أم بدون موافقة والديه، وفي الحقيقة، لم تكن اسرة

ماري، بما فيها اختها ميلي، راغبة هي أيضاً، في مثل هذا الزواج. ذلك أن ماري كانت خادمة، وهذا يستدعي العجرفة من تلك الأسرة نحوها.

لكنهما تزوجا، ورغم كل التناقضات، فقد كان زواجاً سعيداً. ومع أن صوفي ولدت بعد سنتين من زواجهما، فقد بقيت وحيدتهما. ولكن بالرغم من أن الزواج كان سعيداً، فإن اعتقاد الجدين بأن حياتهما ستنتهي بالفقر المدقع، كانت صادقة. فقد كانت طفولة صوفي غاية في التقشف. ولم يكن لديهما نقود للخدم أو لتعليم خاص لصوفي.

لكن مالكولم لم يهتم بشيء من هذا، فتزوجها لأجل اللقب وحده، ولما يسبغه عليه هذا اللقب من شرف.

من المضحك المبكي أن شعوره ذاك نحو ذلك الزواج، يقابله شعور صوفي بأن الزواج من مالكولم يسد النقص في حياتها، وذلك لظنها أنه كان يملك المال الذي كانت أسرتها مفتقرة إليه على الدوام. فقد كانت صغيرة ساذجة، وقد تعلمت درساً قاسياً وهو، ألا تسعى وراء المال. ولكنها، بالرغم من هذا الدرس تشعر بالانجذاب إلى ماكسيميليان الآن بالرغم من ثروته!

ضاقت نظرات ماكسيميليان وهو يرى نظراتها الشاردة، وكأنه يريد أن يسبر غور تفكيرها ليهز كتفيه، في النهاية، مهزوماً، عندما عادت تنظر إليه بهدوء، ثم يستدير نحو ابنته يقول مستنكراً: «هذه غرفة صوفي أثناء مكوثها عندنا، ويمكنك، على الأقل، أن تقرعي الباب قبل الدخول إلى هنا كالعاصفة.»

قالت جين بتبرم: «ولكنني فعلت.» وتضرج وجه صوفي

وهي تدرك السبب الذي جعلها وماكسيميليان لا يسمعان قرع الباب.

قالت صوفي: «كان عليك إذن أن تنتظري قليلاً لكي تسمعي الإذن بالدخول.» وكان صوت صوفي أكثر حدة مما كانت تقصد أن يكون، وعندما بدا على وجه جين التأثر من هذا التعنيف، عادت تقول بلهجة أكثر رقة: «إن من التهذيب أن تفعلي ذلك، يا جين.»

تمتمت الفتاة المراهقة متذمرة: «آسفة.»

اتسعت عينا ماكسيميليان لهذا الاذعان من ابنته تبديه مكرهة، فنظر إلى صوفي متأملاً، ثم عاد ينظر إلى ابنته قائلاً بجفاء: «ربما يكون حظنا أفضل لو أنك طلبت بنفسك من صوفي البقاء.»

تمتمت جين بخشونة وقد بدت الثورة على ملامحها: «إن صوفي تعرف أنني أريدها أن تبقى.»

لم يكن من السهل على هذه الفتاة أن تلتمس شيئاً من أحد، وكانت صوفي تعرف هذا، ولكن، لم تكن هذه هي المشكلة. ذلك أن الأمر الآن لم يعد يتعلق بجين وحدها... فالحقيقة أنها، لم تعد متأكدة من أن البقاء هنا هي فكرة صائبة. وأنها ستمنحها فرصة ثمينة لكي تعرفه بشكل أفضل!

عندما رأت جين أن صوفي موشكة على الرفض، قالت فجأة: «أرجوك.»

لم يسبق أن التزم أي فرد من هذه الأسرة، بالقواعد والأصول، وتأوهت صوفي في سرها. كيف يمكنها أن ترفض رجاء هذه الفتاة الصغيرة الذي يقرب من التوسل، في الوقت الذي كانت هي تعلم فيه مبلغ ما كلفها توسلها هذا؟

لكنها كانت على وشك القبول، عندما لمحت في عيني ماكسيميليان نظرة الفوز وهو يشعر باستسلامها إلى رجاء جين، ومع أنها كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تخيب رجاء جين فقط لأجل ماكسيميليان... ولمعت في عينيها نظرة ماكرة وهي تقول: «هنالك شيء أريد أن أخبر به أباك قبل أن أقبل...»

هتفت جين بغبطة: «إنك قبلت إذن.»

قالت صوفي متعمدة إبداء الجمود على اساريرها رغم علمها أن عينيها ترقصان مرحاً: «انظري يا جين، ربما لن يقبل أبوك، في النهاية، ببقائي.» حسناً، إذا لم يقبل ماكسيميليان باتباع القواعد، فلن تفعل ذلك هي أيضاً.

كان ماكسيميليان يراقبها بحذر، وقد تكهن بشرك ما. وقال بارتياب: «نعم؟»

اقتربت صوفي من السرير، وعيناها الساخرتان لا تبارحان وجهه وهي تنحني لتلتقط قميصها المبلل وتخرج من جوفه القميصين الورديين لتقول وهي تمسكهما بشكل يظهر كل جمال واشراق لونهما الجميل، لتقول بلهجة يتجلى فيها الانتصار: «هل هذان لك؟» فقطب جبينه بحيرة وهز رأسه قائلاً: «ليس لدي قمصان وردية اللون.»

تقدمت جين لترى القميصين عن قرب، ثم لمست لون قميص صوفي الأحمر بخفة، لتقول بلهجة العارف وهي تقهقه ضاحكة: «أتعلم أنهما لا يقدران بثمن؟ لقد غسلت صوفي القميصين الأبيضين مع قميصها الأحمر، فسرى اللون إليهما.»

للحظة، أخذ ماكسيميليان يتابع النظر متفكهاً، ليختلج

فمه بعد ذلك، ومن ثم انطلق يقهقه عالياً وهو يقول: «الحق مع جين إنهما لا يقدران بثمن.»

إن أي شخص ينظر إليهما هما الثلاثة الآن، صوفي المبتسمة، وماكسيميليان وجين الضاحكين، عدا عن حقيقة أن ماكسيميليان أصبح يمتلك قميصين ورديين لن يلبسهما أبداً، فذلك الشخص لا يلام إن ظنهم مجانين. ولكن، كان في ذلك تلاشي التوتر بينهم قبل كل شيء، وكان هو الذي بعث السرور في أنفسهم، وهو الذي كانت صوفي تهدف إليه.

لوى ماكسيميليان شفتيه بحسرة قائلاً: «حسناً، مادام ليس في نيتي ارتداء قمصان وردية، فمن الأفضل أن يُلقى بها في القمامة.»

شهقت صوفي قائلة: «كلا، بالطبع.» فقد شعرت بالصدمة وهي ترى مثل هذه الأشياء الثمينة ترمى في القمامة هكذا بكل بساطة، وتابعت دون تفكير وقد احمر وجهها وهي ترى النظرة المفاجئة في عيني ماكسيميليان، لتقول بسرعة: «أو... أو ربما يرتديهما السيد وايزمن.»

هتف وقد بدا مستمتعاً بما سمع كما لم يبد عليه من قبل: «بول... وهل يبدو عليه أنه من نوع الرجال الذين يرتدون قمصاناً وردية؟»

عبست صوفي وهي تقول: «كلا، حيث أنك أتيت على ذكر ذلك... انني آسفة.»

رددت جين بصوت حائر: «بول... إن صوفي تردد هذا الاسم دائماً... ولكن من يكون هذا يا أبي؟ هل هو رجل أعمال وسيم الشكل احضرته معك لعطلة نهاية الأسبوع؟»

ارتفع حاجبان أشقران فوق عينين زرقاوين آسفتين وهو يقول: «إنك تكبرين، أليس كذلك؟ لقد كنت تشيرين إليهم بقولك انهم رجال أعمال ثقيلو الظل يشغلونني عنك، حسناً، إنني آسف إذ أخيب أملك. ولكن بول مستخدم عندي، أما عن كونه وسيم الشكل... ربما بإمكان صوفي أن تجيب عن هذا السؤال بشكل أفضل مما أستطيعه أنا...» وضاقت عيناه وهو ينظر إليها بإمعان.

لكن جين، بدت أنها مازالت حائرة إزاء شرح أبيها عن هذا الرجل الموجود معهم في المنزل، انقذت صوفي من الحرج في ما لو كان عليها أن تجيب عن ذلك السؤال، وذلك عندما رددت كلام أبيها بحدة: «مستخدم عندك؟ ولكن ماذا حدث للعم سين الذي كان عندنا... عندك مدة سنوات، و...»

قاطعها أبوها بلطف: «يا حبيبتي. إن سين ما زال يعمل عندي وهو سيأتي صباح الاثنين إلى هنا، ولكنه يتمم بعض الأعمال التي لا تحتمل الارجاء، في لندن. وبول يساعدني لمدة أسابيع قليلة.»

قالت: «ولكن...»

قالت صوفي ببطء: «جين، هل لك أن تساعديني في إخراج أشيائي من الحقيبة؟» كانت في الحقيقة تريد أن تصرف انتباه جين عن توجيه كل هذه الأسئلة إلى أبيها بهذا الشكل والتي بدا واضحاً تعب ماكسيميليان منها. وقد تجلى ذلك في أجوبته التي ابتدأت تبدو مختصرة موجزة. وتابعت حديثها قائلة: «ليمكننا، بعد ذلك، الذهاب إلى ملعب التنس الذي سبق ورأيته خلف الاسطبلات.» ولم تكن، في الحقيقة، تشعر برغبة في ذلك إذ أن عضلاتها مازالت تؤلمها منذ

ركوبها الحصان بعد الظهر. ولكنها كانت هنا لتسلية جين والترفيه عنها، وبالتالي لم يكن في استطاعتها الاعتراض. وبدا على الفتاة وكأنها كانت تنتظر هذا، ولكن صوفي سارعت تقول: «إنما يجب أن أنبهك إلى أنني لم أزاول لعبة التنس منذ سنوات.»

عبست جين قائلة: «ولكن، بالتأكيد، حيث أنك اللايدي صوفي...»

قاطعها أبوها: «لا تبدإي باستجواب صوفي عن حياتها الخاصة، يا جينيفر، إنني متأكد من أنها إذا شاءت أن تخبرك عن حياتها فستفعل.»

نظرت صوفي إليه شاكرة، إذ كانت تعلم أنه سبق وعرف كل شيء عن حياتها الخاصة من ذلك التقرير اللعين. وهي ستخبر جين بعض ما ورد فيه وخاصة بالنسبة للجزء الذي يتحدث عن اللايدي صوفي مما يجعل الفتاة ترى مقدار بعده عن الشاعرية.

مشى ماكسيميليان يعبر الغرفة ليخرج، ولكنه ما لبث أن توقف قائلاً بجفاء: «إن بول ليس المستخدم الوحيد الذي سترينه في هذا المكان. وربما سترين منهم من هو وسيم الشكل، ولكن إذا أنت تركت المنزل لأي سبب كان، كأن تذهبي إلى الاسطبلات أو ملعب التنس، فإنني أريدك أن تتركي خبراً بذلك مع شخص ما.»

قالت جين شاكية: «ولِمَ كل هذا؟ ألا ترى يا أبي، في الحقيقة، أنك تأخذ كل هذا بشكل مبالغ فيه؟»

قاطعها بصوت خشن وقد توتر جسمه وضاقت عيناه: «كل ماذا؟»

قالت وقد توهج وجهها غضباً: «كنت فقط أتحدث عن رفاق العمل الوسيمي الشكل. وليس عليك أن تتأكد من أن ثمة حارسة بجانبي طيلة الوقت. فأنا لا أنوي أن أهرب مع أول رجل لائق الهيئة أراه.» وقالت جملتها الأخيرة باشمئزاز.

توتر فم ماكسيميليان وهو يقول مردداً ببرود: «ليكن بعلمك، عليك ألا تتركي المنزل قبل أن تخبري أحداً بوجهتك.» وخرج من الباب، ثم صفقه وراءه بعنف.

حدقت صوفي خلفه بذعر، فقد بدا لها، للحظة قصيرة جداً، أنه كان ثمة صلة بين الأب وابنته قد انهارت تماماً بعد إذ تحول إلى أب مستبد منذ ثوان، معتزماً أن يحمي ابنته حتى ولو لم تشأ هي ذلك.

لا بد أن وراء تصرفه ذاك سبباً ما، ولكن صوفي لم يكن في إمكانها أن تعرف ذلك السبب مادامت تجهل خلفية هذه الأسرة، وبالأخص بالنسبة لوالدة جين. ولكن الذي تعرفه هو أنه ليس من الحكمة أن يحاول سجن فتاة عنيدة صلبة مثل جين. إذ لا شك أن ذلك يقود إلى المشاكل.

الفصل الثامن

«أين هي تلك الفتاة؟» كان ماكسيميليان شاحب الوجه غضباً وهو يحدق في صوفي.

لم يكن في استطاعة صوفي أن تقول شيئاً يخفف من شعوره ذاك لأنها، هي نفسها، لم تكن تعلم عن مكان جين أكثر مما يعلم هو. مع أنها تستطيع أن تتكهن بذلك إنما بشكل غير دقيق...

بالرغم من أنها تنبأت بالمتاعب بعد أوامر ماكسيميليان المتعجرفة تلك، يوم السبت، وردة الفعل الثائرة من جين إزاء ذلك السلوك الاستبدادي، فقد مرّ بقية ذلك اليوم، ثم يوم الأحد بسلام ولكن، ها هي ذي الساعة قد قاربت الواحدة من هذا الاثنين المشرق، ولكن دون أن يبدو لجين أثر.

كان ماكسيميليان في منتهى الثورة. واعترفت صوفي أن معه حق في ذلك ولو أن طريقة استدعائه لها وسؤالها عن مكان ابنته لم تعجبها، وكأن المفروض بها أن تكون سجّانة لابنته وهذا ما لم يكن في نيتها. ولكن والحق يقال كان ماكسيميليان قد أصدر تعليمات لهما أثناء هذا الأسبوع أحدهما يتعلق بأن تتركا خبراً عن المكان الذي تقصدانه إذا هما تركا البيت، أما الثاني فهو ألاّ تتأخرا عن موعد وجبات الطعام. وكما يعرفون جميعاً، فقد كان الغداء يقدم في الثانية عشرة والنصف، وها هما قد أمضيا نصف ساعة في البحث عن الفتاة التي لم تتوجه إلى غرفة الطعام في الوقت المحدد.

لقد عصت جين أوامر أبيها في هذين الشأنين مرة واحدة. الغياب عن المنزل دون إخبار أحد، وعدم المحافظة على موعد الغداء.

كان قد وصل سين ماكاي هذا الصباح فحيته جين بغبطة، وقد بدا عليها الإنشراح لرؤية الرجل الذي كانت تدعوه العم سين. وأقرت صوفي بأنه رجل حسن المنظر. كان في أوائل الخمسينات من عمره أشيب الشعر قصيره، ذا وجه وسيم. وقد أخبرتها جين أنه لم يتزوج قط، مكرساً عمله لماكسيميليان كل حياته. فأسرة ماكسيميليان هي أسرته، مما جعل خوف جين من أن يكون قد استبدله أبوها، جعل هذا الخوف مفهوماً، وبسبب التصاق جين الواضح بهذا الرجل الذي كان يعاملها كجد أكثر منه كعم، فقد صدقتها صوفي حين أخبرتها هذا الصباح بأنها ستذهب إلى المكتب لتتحدث إلى العم سين فترة. ولكن، من الواضح أنها لم تفعل شيئاً من ذلك. ومضى على غيابها منذ ذلك الوقت أكثر من ساعتين.

قال ماكسيميليان يلومها بشدة: «المفروض أن تكوني معها طيلة الوقت. فلماذا لم...؟»

قاطعه سين بلطف: «اهدأ يا ماكس، فأنا متأكد من أن الذنب ليس ذنب صوفي...»

أجابه مخدومه وصديقه بازدراء: «أنت؟ منذ وصولها، والأمور ليست على ما يرام! إنني...»

أجاب سين وهو يبتسم لصوفي بعطف: «ذلك لأن وصولها طابق وصول جين.» كان واضحاً أنه لم يكن لديه فكرة عن كيفية اجتماع ماكسيميليان وصوفي الأول. وتابع قائلاً: «ونحن الاثنين نعرف مقدار العزم عند تلك

السيدة الصغيرة، إنني متأكد من أن صوفي حاولت جهدها معها.» وهز رأسه بأسى.

قال ماكسيميليان بخشونة وقد تقبضت يداه وهو يستدير مبتعداً وبان في وجهه الاحباط: «واضح أن عملها لم يكن حسناً بما فيه الكفاية.»

شعرت صوفي بالألم للكرب الشديد الذي كان واضحاً أنه يمر به، وشعرت بنفسها مسؤولة عن ذلك. فقد بدا أنها وجين، قد نشأت بينهما صداقة. فقالت: «أظنها... ربما ذهبت إلى المدينة للتسوق...»

فردد ماكسيميليان قائلاً غير مصدق وهو يستدير من حيث كان يحدق من النافذة إلى الخارج: «تتسوّق؟»

أجفلت صوفي للنظرة الباردة التي رمقها بها فسمرتها في مكانها، فقالت: «لقد طلبت مني ذلك هذا الصباح، ولكنني فكرت انه من الأنسب ان نذهب بعد الظهر. وهكذا...»

ردد ماكسيميليان كلامها بلهجة بطيئة: «فكرت؟ ولكنك لم تقبضي أجرتك لكي تفكري، يا لايدي صوفي...»

قاطعه سين يهدئه مانعاً إياه من الاسترسال في هذه الاهانة: «ماكس، ليس ثمة ضرورة في الحقيقة لمثل هذا.» كانت السنوات التي أمضاها مع ماكسيميليان، وصداقتهما الواضحة، تشعره بالحق في هذا التدخل.

لكن ماكسيميليان وصوفي تجاهلاه، هما الاثنين، ونظرت إليه صوفي واضعة يديها على خاصرتيها متحدية وهي تقول: «إنني لم أقبض شيئاً بعد، يا سيد غرانت. وإذا كان عدم السماح لي بالتفكير، هو شرط للعمل عندك، فإنني لن استمر في العمل.»

بان الغضب في عينيه وهو يقول بحدة: «مرة أخرى؟ إنك حقاً في منتهى السفاهة...»

قاطعته بازدراء غير مصدقة: «أنا سفيهة؟ ألا ترى أن تصرفك نحو جين لأنها تسللت لتتسوّق لمدة ساعتين تجاوز الحد؟ ربما لو لم تكن قد أصدرت أوامرك الحمقاء تلك في البداية، لما فكرت هي في تحدي سلطتك. إنها لم تهرب مع البستاني أو أشبه. إن الرجل في السبعين من عمره، أما المستخدمين الجدد الذين أخبرتنا عنهم، فكلهم في أواسط العمر.» وكانت صوفي وجين قد شاهدا البعض منهم ولكنهما لم تتحدثا إليهم خاصة جين، على ما تتذكر صوفي. وتابعت قولها: «بقي بول، ربما هربت معه.» حقاً ان ذلك الرجل لم يكن معهم الآن، ولكن الحق يقال انه جاء بعد أن بدأ البحث عن الفتاة. ولكن، إذا كان ماكسيميليان يتصرف بهذا الشكل السخيف غير المعقول، فبامكانها هي أيضاً أن تفعل مثله.

بدا عليه أنه على أهبة الانفجار وهو يقول: «إنك...»

قاطعه سين بلطف: «اضبط أعصابك يا ماكس. ربما إذا أنت أوضحت كل شيء لصوفي، يمكنها...»

حدقت في ماكسيميليان قائلة: «نعم. لماذا لا توضح كل شيء بدلاً من أن تتصرف كأب رجعي مستبد؟»

قال بحدة: «إنني أتصرف بصفتي أب يهتم بسعادة ابنته.»

عاد سين يقول مهدئاً: «ربما إذا اطلعت صوفي على كل الحقائق...» لقد بدا من السهولة معرفة سبب بقائه في خدمة ماكسيميليان كل تلك السنوات، فقد بدا واضحاً في حبه

واحترامه له، وكان ذلك الحب والاحترام متبادلاً بين الرجلين، وإلا فإن ماكسيميليان ما كان ليبقيه في خدمته وهو يراه يتدخل في شؤون الأسرة بكل تلك الجرأة.

استدار ماكسيميليان نحو سين وعيناه ترسلان بريقاً خطراً وهو يقول ببرود: «ليست في حاجة إلى أن تعرف شيئاً.»

تنهدت صوفي قائلة: «ربما لم أقبض أجرتي لكي أعرف شيئاً أيضاً يا سين.» وشعرت بالدوار بسبب التوتر الذي كان يملأ الجو. وسبب هذا كله، هو ماكسيميليان الذي يحوّر أسلوب الكلام. ولكن يبدو من الكلام الذي تبادله الرجلان، أن ثمة شيئاً لم يخبرها به ماكسيميليان، وكذلك ليس في نيته أن يفعل. وقالت: «ربما إذا كنا جميعاً...» وسكتت عندما فتح الباب فجأة.

استدارت الرؤوس بلهفة، عسى أن يكون القادم جين، لتحل الخيبة مكان الرجاء في الوجوه وهم يرون أن القادم هو بول، الذي خاطب ماكسيميليان مباشرة دون أن يلقي نظرة على صوفي وسين قائلاً: «لقد ذهبت (السيدة الرحوم) هي أيضاً، فقد تفقدنا مربطها، أنا وجنكنز، فوجدناه خالياً. كم مرة نصحتك بأن أمراً كهذا قد يحدث...»

تابع سين بخشونة وهو ينظر قلقاً إلى وجه ماكسيميليان الخامد: «لقد فعل ماكس ما ظن أنه الأفضل بالنسبة لمن يتعلق به الأمر. ولكن الأمور لم تسر في ذلك الطريق والذنب ليس ذنبه.»

لم تستطع صوفي أن تفهم لماذا كل هذا الاهتمام والقلق لهذا الأمر. لقد كان الأمر واضحاً في نظرها، خاصة بعد ما

علمت أن الفرس كانت مفقودة هي أيضاً. ذلك أن جين التي كانت مولعة بتلك الفرس الجميلة بقيت بجانبها في مربطها مدة طويلة صباح أمس قبل أن تذهبا للنزهة، وكان من الواضح أنها متشوقة لركوبها، ولكنها منعت من ذلك. وافترضت صوفي أن السبب هو أن جين لم تستطع مقاومة الاغراء هذا اليوم، فركبت (السيدة) أو (السيدة الرحوم) دون أن تخبر أحداً. ولم تكن لتستطيع اخبار أحد لأنها سبق ومنعت من ذلك. ولم تفهم صوفي كيف لا يدرك هؤلاء المجتمعون هذا الأمر البديهي.

قالت بلهجة آسفة: «إنني أدرك أن جين ما كان لها أن تتأخر عن موعد الغداء ولا بد أنها أدركت خطأها الآن.» وفكرت صوفي في أن جين لا بد قد أدركت الآن أنها تأخرت عن الموعد وخالفت بهذا أوامر أبيها، وأن خوفها الباطني لا بد تحول الآن إلى تمرد. وتمنت صوفي لو أنها تتمكن من رؤية الفتاة قبل أن تدخل وذلك لتنصحها بأن الاعتذار وإظهار الندم لما فعلت قد يأتي بنتيجة أفضل من إظهار الثورة والعناد. هذا مع أن صوفي لن تستطيع ضمان ذلك ومنظر ماكسيميليان على ما هو عليه في هذه اللحظة، وتابعت قائلة: «ولكنها ستكون هنا، دون شك، خلال دقائق وعند ذاك يمكننا جيمعاً...»

استدار ماكسيميليان إليها ثائراً يقول وقد توترت عضلات فمه وفكه: «ما الذي تثرثرين به؟ ألم تدركي بعد أن جينيفر لم تذهب إلى المدينة للتسوق؟»

فردت بحدة على ازدرائه ذاك قائلة: «لقد أدركت ذلك طبعاً، ولكنني لا أظن أن كونها أخذت فرسك لتتنزه عليها

يستلزم الشنق، ولم أر أحداً يستلزم الشنق مثلكم أنتم الثلاثة.» ونظرت إلى الرجال غير مصدقة وهي تتابع: «ألا ترون أنكم يجب أن تفكروا قليلاً؟ امنحوا على الأقل، تلك الفتاة المسكينة فرصة تدافع بها عن نفسها عندما تعود.»

ارتفع صوت ماكسيميليان قائلاً بغضب واحباط: «وربما لن تعود قط.»

عبست صوفي وهي تجيبه: «إنها طبعاً ستعود، فإن جين تحسن الركوب تماماً. إنني أعرف أن (السيدة الرحوم) هي فرس عصبية، ولكنني متأكدة من أن جين تعرف جيداً كيف تتصرف معها.» لقد كانت الفتاة الصغيرة فارسة ممتازة، وهي لا تكاد تختلف عن أبيها في ذلك، أدركت صوفي هذا الصباح عندما تطلعت إلى الخارج من غرفة نومها لترى ماكسيميليان عائداً إلى الاسطبل من نزهته على ظهر حصانه، إنما ليس الفرس (السيدة الرحوم) تلك، كما تذكرت الآن. وفكرت في أن تلك الفرس العصبية لا بد وأن يفيدها شيء من الرياضة ففي هذه الحالة، على ماكسيميليان أن يشكر جين إذ وفرت عليه عناء القيام بذلك بنفسه، لا أن يوبخها.

سألها ماكسيميليان بحدة: «وما الذي تعرفينه عن ذلك بالضبط؟»

ها هو ذا يهينها مرة أخرى، فلم تتمالك من أن تجيبه حانقة: «إنني أعرف أنك متكدر لأجل اختفاء جين، يا سيد غرانت، ولكنني لا أظن أن في إهانتي ما...»

قال ساخراً: «لا تعودي إلى الظن، مرة أخرى، ليس عندك أية فكرة عما تتكلمين عنه.»

«لِمَ كل هذا الصياح؟»

هذه المرة كانت جين هي الواقفة عند الباب تقول هذا، ليستديروا إليها جميعاً. ولكن دون أية لهفة في وجوههم الآن، كان فقط في وجه صوفي ترحيب وأسف، بينما بدا الارتياح في وجهي سين وبول... وذهول بالغ في عيني ماكسيميليان وهو يحدق في ابنته غير مصدق.

من إمارات التمرد التي ظهرت على ملامح جين عندما التقت عيناها بعينه، بدا أن هذا اللقاء بين الأب وابنته لن يكون فيه أية بهجة.

خطت جين إلى داخل الغرفة، وكانت مرتدية سترة الركوب الخضراء، ورابطة شعرها إلى الخلف بشريطة خضراء قاتمة.

عندما لم يجب أحد على سؤالها، عادت تقول ساخرة: «هل مات أحد يا ترى؟»

أجابها أبوها بنعومة خطرة: «كلا، ولكن شخصاً سيموت الآن.» وسار نحوها متوعداً. وهنا، وضع سين يده على ذراعه مهدئاً، ولكن النظرة الصاعقة التي رمقه بها ماكسيميليان، كانت كافية لأن يسحب يده تلك. ولكن الثواني التي أعاقت ماكسيميليان عن متابعة السير نحو ابنته، أحدثت النتيجة المرغوبة إذ لم يعد يبدو عليه النية في خنق ابنته دون أن يسمع ما ستدلي به أولاً، ليخنقها بعد ذلك، كما تصورت صوفي، وهي تقطب حاجبيها.

سألها بعنف ويداه تنقبضان وكأنه يهم بخنقها: «اين كنت يا جينيفر؟»

قالت صوفي: «ربما علينا جميعاً أن نخرج لنترككما... لتتفاهما.» فهي لم تكن لتستحسن وقوفهم جميعاً يتفرجون

على إذلال جين، إذ لم تشك لحظة في هذه النتيجة، ذلك أن ماكسيميليان لم يكن يبدو عليه أي تقبل للاقناع أو التساهل الآن.

أجاب بلهجة لا تقبل الجدل: «كلا.» وكان سين وبول على وشك مغادرة الغرفة، فاستدارا ينظران مستفهمين، بينما كان ماكسيميليان يتابع قائلاً: «لقد ذهبنا جميعاً للبحث عن هذه السيدة الصغيرة. التي لا تضمر اعتباراً لأحد، وذلك خلال الساعة الأخيرة، إذن فنحن جميعاً نستحق أن نسمع تفسيراً لذلك وأيضاً اعتذاراً.» وقال كلمته الأخيرة بلهجة أرادها بها أن تفهم أن ذلك أقل ما يجب عليها.

من ملامح جين التي بدا عليها العصيان، أدركت صوفي أن الفتاة لم تضع تحذير أبيها ذاك في حسابها.

فكرت صوفي، ساخرة من نفسها، أنها عادت إلى الظن من جديد. وكأنما شعر ماكسيميليان بذلك، فأدار وجهه نحوها ينظر إليها بعينين ضيقتين، وكأنه يريد أن يفتك بها، ثم عاد ينظر إلى ابنته قائلاً: «حسناً؟»

قالت بنفور: «لقد تأخرت قليلاً عن موعد الغداء.»

قال بهدوء خطر: «ثم أنك أخذت تلك الفرس (السيدة الرحوم) دون أن تخطري أحداً بذلك.»

عضت شفتها عابسة بأسف وهي تقول: «آه، وتعرفون ذلك أيضاً؟»

قال: «طبعاً نعرف...» وسكت يستجمع أنفاسه، محاولاً بصعوبة، تمالك أعصابه ليستطرد قائلاً: «رغم ما قد تعتقدين، فإنه ليس في استطاعتك التعامل مع (السيدة الرحوم). وكان يمكن أن يحدث أي شيء.»

اتسعت عيناها وهي تقول ببرود: «تعني أنه كان من الممكن أن أسبب الضرر لفرسك الغالية بعدم خبرتي؟» وبدا الآن التمرد في لهجتها ممزوجة بالسخرية وهي تتابع: «حسناً، إنها بأتم خير. وإذا لم تصدقني اذهب إلى الاسطبل لترى بنفسك.» وركضت نحو الباب بغية الهرب من الغرفة كما رأوا جميعاً.

صرخت صوفي في إثرها: «جين. أنا متأكدة من أن أباك لا يعني ذلك أبداً.»

ردت عليها الفتاة بسخرية: «أحقاً؟ إنك لا تعرفينه إذن جيداً. فأنا دوماً أحقر شيء في قائمة ممتلكاته.»

صرخ الأب: «جينيفر.»

ردت قائلة: «ماذا جرى يا أبي؟» وكانت نظرتها إليه وكأنها تشعر بالكراهية له هذه اللحظة، وهو شيء كانت صوفي تعلم أنه ليس صحيحاً، ولكنها لسبب ما، كانت تعتقد أنه لا يقابل حبها بمثله. وتصرفها هذا كله، لم يكن سوى عملية دفاعية في أعماقها. تابعت جين: «ألا تريد أن يكون ثمة من يستمع إلى حقيقة ما تشعر به نحوي؟» وتحولت لهجتها الآن إلى التحدي وهي تقول: «إنهم جمهورك يا أبي... لقد أمرتهم أنت أن يبقوا ليتمتعوا بهذا. والذنب ذنبك إذا لم يعجبك ما سيسمعون. والحقيقة هي أنك لا تهتم بي مثقال ذرة، فاهتمامك كله لأجل فرسك الغالية، وبما أنك رجل أعمال، تقدر كل شيء بما يستحق من ثمن، فإن تلك الفرس أغلى ثمناً مني بكثير.»

قال ماكسيميليان بصوت هادىء تماماً: «جينيفر، لقد تماديت كثيراً.»

كانت صوفي متأكدة أن سين وبول كانا يوافقانه على هذا، وكذلك هي، ولكنهم كانوا جميعاً متجمدين في أماكنهم، لا يستطيعون أن يقوموا بما يضع نهاية للأمر. أجابت جين دون رحمة: «ألأنني أقول الحقيقة التي ترفض سماعها؟ لم أكن أحب قط أن اسمع شجاركما، أنت وأمي، ولم أكن أحب أن اسمع تلك الكلمات، المدرسة الداخلية، وليس فقط إرسالي إليها، ولم أكن أحب سماع كلمات الطلاق والوصاية.»

تجمعت في عينيها دموع لم تنهمر وهي تلقي بهذه الذكريات المؤلمة في وجه أبيها، مستطردة: «ولكن كلمة الوصاية تلك لم تنطبق عليك، أليس كذلك؟ لقد كنت راغباً تماماً في أن تتنازل لأمي عن حق الوصاية عليّ، ذلك لأنك كنت تريد أن تخرجنا من حياتك نحن الاثنتين. وكان مؤسفاً جداً بالنسبة إليك، أن تموت أمي قبل الطلاق.»

نظرت صوفي إلى ماكسيميليان بإمعان لتراه مصعوقاً تماماً أمام الانفجار، والذي جعله ربما لأول مرة في حياته، لا يستطيع الكلام. ولا غرابة في ذلك وهو يرى ابنته تكبت في اعماقها كل هذا الألم والحقد نحوه منذ سنوات كثيرة، وربما قبل أن تموت أمها كما يظهر. لقد كانت تظنه لا يريدها أبداً.

كانت صوفي ترى أن عند جين ما يدفعها لمثل هذا الاعتقاد، ولكن صوفي، مع هذا كانت متأكدة من أن ماكسيميليان يهتم بابنته كثيراً.

عندما لم يرد أبوها بشيء على اتهاماتها هذه، قالت بلهجة لاذعة: «يا للمسكين.» واستدارت ثم ركضت خارجة من الباب.

عند ذلك، رأت صوفي كما رأى الجميع بعد أن شاهدوا

جين والألم يكسو ملامحها، تخرج من الغرفة، حين عادت لم تكن بمفردها، بل كان معها شخص تعرفه صوفي جيداً وهو... برايان، والذي كان يقف خلف جين شاهداً على كل هذه المحادثة الخاصة بين ماكسيميليان وابنته.

كانت هذه المحادثة خاصة جداً بحيث تصلح لأن تؤلف منها قصة جيدة يبيعها إلى أي صحيفة معتبرة...

ولكن، قبل أن تتمكن صوفي من تمالك مشاعرها المشتتة لتقول شيئاً، رغم أنها لم تكن تعرف ما ينبغي أن تقول، اجتاز ماكسيميليان الغرفة بخطوات مندفعة، ليواجه برايان الذي بدا أمامه نحيلاً ضئيل الحجم.

سأله ماكسيميليان ثائراً وهو يرى رجلاً غريباً واقفاً في ردهة منزله: «من أنت؟»

لم تستطع صوفي لومه لانزعاجه ذاك. وسيكون دون شك، في غاية الانزعاج لو علم بأن برايان صحفي...

بدا على برايان وكأنه رجل أدخل إلى قفص يحوي أسوداً جائعة، ثم أقفل الباب خلفه، وقال متلعثماً: «ا... إنني كنت في طريقي إلى المنزل عندما رأيت جين في الخارج.» كان يتكلم بسرعة وهو يرسل إلى صوفي نظرات قلقة، دون أن يعرف ما الذي أثار في كلامه، هذه العداوة عند ماكسيميليان غرانت نحوه، وكل ما كان يعرفه، هذا الغضب العنيف في تلك العينين الباردتين لدى سماعه ما أدلى به.

مسكين برايان، فهو لا يعلم ان نطقه لاسم جين بتلك الالفة هو الذي اغضب ماكسيميليان! على الأقل، هذا ما كانت صوفي ترجوه وليس أن ماكسيميليان قد عرف فيه رجل ليلة الجمعة ذاك.

أخذ ماكسيميليان ينظر إلى برايان بعينين ضيقتين وهو يسأله: «أخبرني بالضبط لماذا كنت في طريقك إلى المنزل، بصورة مطلقة؟» لقد أثبت ماكسيميليان بسؤاله هذا، أنه لم يعرف برايان، مما أشعر صوفي بالراحة... ولو إلى حين...

أضاف ماكسيميليان ببطء: «إنني لا أعرفك... هل سبق..؟» وأخذ يتذكر وكأن صوت برايان أثار ذكرى في نفسه.

رمق برايان صوفي بنظرة تضرع أخرى وقد بدا عليه الندم لمجيئه إلى هنا، مهما كان الدافع لذلك. أو على الأقل، لكشفه عن حضوره بهذه الطريقة في الردهة. ولم تصدق صوفي أن برايان يمكن حقاً أن يندم لاطلاعه على هذا المشهد بين الأب وابنته. وعلى كل حال، كلما أسرعت بالحديث إليه عن ذلك، كان هذا أفضل.

قالت بسرعة: «إن برايان هو من أصدقائي. كان عليك أن تتصل هاتفياً قبل حضورك، يا برايان، لكنت قابلتك في المدينة.»

ردد ماكسيميليان مفكراً وقد قطب جبينه: «برايان؟» وبدا أن الذكرى تتملص منه.

لكن صوفي كانت متأكدة من أن ذلك لن يدوم طويلاً، فأمسكت برايان من ذراعه قائلة: «هيا بنا يا برايان، ولنذهب إلى المطبخ لنرى خالتي ميلي.»

عاد ماكسيميليان يردد: «برايان...» لقد حجب شجاره مع ابنته، كما يبدو، فطنته المعتادة، ولكن ليس إلى وقت طويل كما كانت صوفي واثقة.

قالت وهي تجر برايان من الغرفة: «نلتمس المعذرة.»

لم يكن يريد البقاء، بعد ما ادرك غلطته في كشف نفسه هناك. ولكن صوفي شكرت حظها على ذلك إذ أصبح في امكانها أن تصدر إليه تحذيراً رهيباً الآن لكي لا يستغل ما سمعه الآن لمصلحته في مهنته، ذلك أن النتيجة ستكون معاكسة لمصلحته تلك تماماً في ما لو أغضب ماكسيميليان وأثار حقده عليه.

كانت صوفي، في الحقيقة، تريد أن تذهب إلى جين، ولكن الحديث إلى برايان الآن كان أكثر أهمية، فهي ستستعمل التهديد معه إذا هي وجدت ضرورة لذلك.

قال لها محذراً وهما واقفان خارج المطبخ بعد ما رأى ملامحها الثائرة: «لا تكلفي نفسك عناء طلب شيء مني.»

قالت بثبات: «إنني لا أطلب، يا برايان، وإنما أعلمك أن ليس لك الحق بنشر المعلومات الخاصة التي سمعتها...»

ضحك وهو يعرض عنها، بعد أن عادت إليه ثقته بنفسه بعد ابتعاده عن ماكسيميليان، وقد لمعت عيناه بالإثارة وهو يفكر بالمستقبل المشرق أمامه، قائلاً: «لا تكوني حمقاء، يا صوفي. إن ما سمعته لم يكن اسراراً خاصة أبداً، بل هي مجرد مشاجرات عائلية صدف أن سمعتها.»

قالت ساخطة: «بين السيد غرانت وابنته؟»

كان الاثنان يعلمان أن ماكسيميليان وجين ليسا كأي أسرة عادية، فالاخبار عنهما مما تهتم له الصحف.

قال برايان مسروراً: «كانت الأمور مكشوفة تماماً، خاصة وأهم شيء في الأمر ذلك الحديث عن الحصان الذي كانت جين...»

«صوفي!» كان هذا صوت خالتها التي كانت خارجة من

المطبخ حتى كادت تصطدم بهما، وعندما رأت برايان قالت تحييه مقطبة الجبين: «برايان..؟»

استقام هو في وقفته وقد بدا عليه الشعور بالذنب وهو يقول: «لقد كنت في طريقي لرؤيتك.»

قالت بارتياب: «من خلال المنزل؟»

وافقتها صوفي على ذلك، إذ أن شرحه لسبب حضوره لم يكن مقنعاً. ولماذا يأتي لزيارة خالتها على كل حال؟

قال دون اهتمام: «هذا ما حدث. فقد جئت لأخبرك أنني كنت أتحدث إلى آرليت البارحة، طلبت مني أن أمر عليك وأبلغك تحياتها. وطبعاً كنت مسروراً بهذا، فقد كنت أعرف مقدار قلقك عليها منذ سافرت، لهذا جئت إلى هنا حالما خرجت من العمل.»

قطبت صوفي حاجبيها لنظرة الفوز التي رمقها بها. ولم تستطع أن تفهم ما الذي جعل ابنة خالتها آرليت تتصل هاتفياً ببرايان بيرنيت وليس بأمها؟ وذلك من المانيا.

قال لها برايان وهو يجلس إلى المائدة في المطبخ يرشف القهوة التي احضرتها له الخالة ميلي: «كنت وآرليت، نخرج معاً قبل حوالي شهرين من سفرها إلى المانيا.» لقد احتفت به الخالة ميلي تماماً بعد ما علمت أنه يحمل لها أخباراً من ابنتها التي في ألمانيا.

لكن خالتها نسيت تماماً عتبها عليه لدخوله المنزل في طريقه إلى المطبخ، حالما حدثها عن ابنتها الحبيبة. وقد سكبت لهما كل ما في إبريق القهوة لكي تغريه بالجلوس والحديث عن تلك المحادثة الهاتفية. ولكنها ما أن صبت القهوة، حتى رن عندها الهاتف آتياً من غرفة الجلوس.

فأسرعت لتجيب وهي تتمتم بأن القادمين والغادين في هذا المنزل قد أصبحوا من الكثرة بحيث بدا مثل ساحة بيكاديلي. وكان ابتعادها فرصة لكي تحل صوفي المسألة مع برايان نهائياً.

كونه كان صديق ابنة خالتها قبل سفرها إلى المانيا، قد أوضح أشياء كثيرة كانت تحير صوفي. مثل الجمود الذي بدا على خالتها عندما علمت بأنه هو الذي أوصلها إلى المنزل ليلة الجمعة. ربما كانت خالتها خائفة من أن تسرق صديق ابنتها أثناء غياب هذه في المانيا.

صداقة برايان لآرليت يفسر طموحه المفاجيء هذا بعد سنوات من عمله برضى تام، في الأقاليم. لقد كانت آرليت طموحة، وكانت تتحدث منذ طفولتها عن رغبتها في زواج ناجح يوماً ما. فهي لم تكن تريد أن تتزوج لكي تنجب الأطفال لتعيش بقية حياتها في الظل، من الواضح أن برايان كان يريد أن يقدم لآرليت ما يرضيها، عالماً بأنها لن تقبل بربط مصيرها بمصيره إذا هو لم يفعل. وكانت صوفي تعرف ذلك هي أيضاً، فقد كانت، مع شدة حبها لابنة خالتها، تعرف أنها من العناد والثبات على الطريق الذي خطته لنفسها، بحيث لا يثنيها عن ذلك شيء حتى ولا الحب نفسه، نعم، لقد ابتدأت صوفي تدرك مبلغ ورطة برايان الآن، ولكنها مازالت ترفض فكرة أن يستغل ماكسيميليان وجين للتقدم في مهنته، حتى ولو كان هدفه الاستيلاء على قلب ابنة خالتها تلك.

قالت صوفي بذهول: «هذا حسن جداً بالنسبة إليك، بالنسبة إليكما أنتما الاثنين ولكننا لم ننته من الحديث عن ماكسيميليان وجين.»

وقف برايان وهو يقول بلهجة حاسمة: «بل قد فعلنا. إنني لن أقول لك انني لن أستغل تلك المعلومات، يا صوفي، لأنني حتماً سأفعل ذلك.»

قالت: «ولكن ماكسيميليان قد يقيم عليك دعوى.»

قال ساخراً: «ولماذا؟ هل لأنني قلت الحقيقة؟ اسمعي يا صوفي، إنني، بهذا اصنع معك جميلاً، لأنك من الأسرة تقريباً.» واحمرت وجنتاه قليلاً وهو يذكر ذلك.

رددت قوله غير مصدقة: «تصنع معي جميلاً؟ بطردي من عملي؟ إن هذا ما سيحدث إذا أنت نشرت قصة عن ماكسيميليان وعلاقته بابنته. وربما تطرد خالتي ميلي أيضاً.» قالت ذلك واثقة من أنها لفتة ذكية منها، فإذا كان حقاً جاداً في نيته نحو ابنتها، فهو بالتأكيد لن يقبل بأن تطرد حماته المستقبلية من عملها لأجله، ولو أن صوفي لم تكن تعتقد أن الأمور ستصل إلى هذا الحد... ثم إن ماكسيميليان يعتقد أن برايان جاء إلى هنا لرؤيتها وليس عنده فكرة عن علاقته بالأسرة. ولكن، لا ضرر من أن يعتقد برايان ذلك. ولكن، كان برايان، لسوء الحظ، اكثر ذكاء مما كانت تظن، إذ أنه ابتسم بثقة لفكرة احتمال طرد حماته، وهو يقول: «سأصنع معك جميلاً يا صوفي، لأن هناك قصة أهم كثيراً من علاقة ماكسيميليان مع ابنته.»

نظرت إليه صوفي بحدة قائلة: «ما الذي تعنيه؟»

أجاب بصبر نافد: «الفرس، يا صوفي، الفرس التي كانت جين تركبها عندما قابلتها في الخارج.»

كانت صوفي ماتزال حائرة وهي تنظر إليه عابسة وهي تتمتم دون أن تدرك ما تعنيه تلك الفرس: «السيدة؟»

قال مصححاً: «السيدة الرحوم، هيا يا صوفي، لا بد أنه قد خطر لك أن تساءلت عما تفعله فرس سباق، من ذلك الوزن هنا وليس في اصطبلات المروضين، دعي عنك أن ابنته جين غرانت كانت تركبها.»

أهي فرس سباق؟ تلك المهرة الرائعة الجمال، بطاقتها الهائلة؟ وعلمت صوفي دون أدنى شك، بأن برايان يقول الحقيقة. لقد كانت (السيدة الرحوم) فرس سباق. ولم تعرف لماذا لم يخطر ذلك في بالها من قبل.

ما الذي كانت تفعله تلك الفرس هنا؟

الفصل التاسع

أخذت صوفي أثناء صعودها إلى غرفة جين، بعد ذلك بمدة قصيرة، تفكر في عدد من الأسباب التي تجعل الفرس (السيدة الرحوم) في هذا المكان بدلاً من اسطبلات المروضين، ربما كان ماكسيميليان قد اختلف مع المروض، فسحب منه الفرس هذه من اسطبله؟ ربما كانت الفرس مريضة وأراد أن يبعدها عن غيرها من الخيول؟ أو ربما كانت مؤخراً في سباق محلي، ووجد أنه من الأفضل أن يعيد نقلها إلى مكانها الأول؟

كانت هناك كل أنواع الأسباب لذلك، طمأنت بها برايان، دون أن تكون هي نفسها مقتنعة بواحد منها...

كان هنالك تلك التلميحات الغامضة من سين عن شيء كان يجب اعلامها هي به، تلتها تصريح بول المذعور عن اختفاء الفرس من الاسطبل كما اختفت جين... وكلما فكرت صوفي في الأمر، عرفت ان ثمة شيئاً غامضاً يدور في هذا المكان لا تعرفه هي، شيئاً يتعلق بوجود (السيدة الرحوم) هنا، كما قال برايان. ولكنها أبداً لن تلمح بأي شيء من شكوكها هذه لبرايان.

كانت جين جالسة على سريرها، جافة العينين، عندما دخلت عليها صوفي. ونظرة منها إلى أجفان جين الحمراء المنتفخة، أنبأتها بأن الفتاة كانت تبكي قبل دقائق فقط. وحاولت صوفي أن تسري عنها، ولكن نظرة شرسة من الفتاة، جعلتها تتراجع عن ذلك.

أخيراً قالت لها: «سأعود في ما بعد، أليس كذلك؟» ولكن جين لم تكلف نفسها عناء الرد، وبقيت مستغرقة في تعاستها.

بدا أن ماكسيميليان لم يكلف نفسه عناء الحضور لرؤية ابنته، اذ لا يمكن ان يكون قد فعل ذلك، وإلاّ لما بقيت جين في هذا المظهر الذي بدت عليه.

هكذا، بعد كل الذي سبق وقيل، وتعاسة جين البادية، لم يصعد ماكسيميليان ليرى ابنته ويؤكد لها حبه. حسناً، ستذهب صوفي اليه بنفسها لتخبره برأيها في قسوته تلك وتجاهله لشعور الآخرين، حتى ولو كانت نتيجة ذلك طردها من عملها كلياً.

في أعماقها، تمنت صوفي لو أن ثمة سبباً وجيهاً دفع ماكسيميليان إلى عدم محاولته رؤية ابنته. ذلك أنها لم تشأ أن يكون رجلاً من القسوة بحيث لا يراعي شعور ابنته، إذ أنه، إذا هو لا يستطيع أن يبدي حبه وتفهمه لابنته، فماذا يكون امره مع أية امرأة تدخل حياته...؟

ادركت صوفي انها، بعد سنوات من تجنبها للرجال والحذر منهم، قد وقعت اخيراً في غرام ماكسيميليان من بين جميع الرجال.

متى؟ كيف؟ لماذا؟ وكان السؤال الأخير هو الذي شغل أفكارها اكثر من غيره، ذلك أنها لم تكن تريد أن تعقد مسيرة حياتها بأية مشاعر كهذه، بعد أن حاولت جهدها جمع شتات أمورها والسير بحياتها بهدوء. أما الوقوع في الحب، وحب دون أمل كهذا، فهذا ما لم تحسب له حساباً.

لكن الحب كان آخر شيء في ذهنها عندما التقت

ماكسيميليان في الاسطبل وكان يتكلم الى الفرس (السيدة الرحوم) بكل رقة ولطف بينما كان جنكنز يمشط جلدها بعد ذلك الركوب. كان ماكيسيميليان يسرّي عن الفرس بينما كان عليه أن يفعل ذلك مع جين.

قالت له وهي تشهق ناظرة اليه غير مصدقة: «ما الذي تظن نفسك تفعل؟»

أدار ماكسيميليان رأسه ينظر اليها ببرود قائلاً: «عفواً؟»

كلا... لن يمكنه ذلك... لن يمكنه أن يخرج نفسه من هذا الموقف بنظرته المتعجرفة الباردة تلك، وكأنه بذلك يريدها أن تلزم مركزها كمرافقة لابنته! لكنها هنا لأنها صديقة ابنته وليست مرافقتها فقط.

قالت: «إن ابنتك في غرفتها كسيرة القلب لأنها تظن انك تحب هذه الفرس اكثر مما تحبها، وآتي أنا إلى هنا لأراك تسري عن هذه الفرس العجماء! وبدون شك، تطمئنها إلى انك لن تدع تلك الفتاة القذرة تعتلي ظهرها مرة أخرى. أليس كذلك؟»

قال ماكسيميليان موجهاً حديثه إلى جنكنز: «هل لك أن تتركنا، يا جنكنز؟» وانتظر إلى أن خرج الرجل، مغلقاً الباب خلفه، ليتحول إلى صوفي قائلاً: «هل لك أن توضحي كلامك ذاك؟» قال ذلك دون ان يتحرك من مكانه. وكان جموده ذاك يوحي بالخطر بحد ذاته.

أجابت بكآبة، شاعرة نحوه بخيبة الأمل: «أليس كلامي هذا مفهوماً؟»

هز رأسه وقد تجلى العبوس على ملامحه، وهو يقول: «إنني أعلم أنني كنت قد تصرفت نحوك بشكل قذر، وإنني أعتذر.» وهز كتفيه معرضاً عنها.

لم تستطع صوفي أن تصدق أنه إلى هذا الحد من عدم الاحساس، فهي تعلم انه ليس كذلك مطلقاً.

نظرت إليه بضراعة تريده أن يتخلى عن عدم مبالاته هذه، أن يكون الرجل الذي بدأت تقع في حبه. انها لا يمكن ان تكون مخطئة إلى هذا الحد في نظرتها إلى الأشخاص، وإلى ماكسيميليان بالذات... فقالت له: «ماكسيميليان، لماذا فعلت ذلك؟»

هنا تحرك من مكانه مقترباً منها قائلاً بخشونة: «قولي ذلك مرة أخرى.»

طرفت بعينيها وهي تنظر إليه قائلة: «لماذا تفعل هذا؟»

كرر قوله: «انطقي باسمي مرة اخرى. لم يدعني احد قط من قبل ماكسيميليان، وأريد أن أسمعه من فمك.»

هزت رأسها غير مصدقة وهي تقول: «انك... ماكسيميليان لا يمكنك أن...» قاطعها سائلاً: «لا يمكنني ماذا؟» لقد جاءت إلى الإسطبل، حيث هذه الفرس الثمينة التي بسببها تجلس جين في غرفتها تذرف الدموع، وذلك لتتحدث إلى ماكسيميليان، ونظرت اليه عابسة وهي تقول: «ما الذي تفعله هنا (السيدة الرحوم) يا ماكسيميليان؟ لقد قال برايان انها فرس سباق ثمينة وأنها...»

قال يسألها بخشونة وقد ضاقت عيناه: «وما الذي يعرفه عنها، تباً له.»

هزت كتفيها بضيق وهي تقول: «لقد رأى أنها فرس أصيلة، وعندما سأل جين عنها، كما أظن، أخبرته...»

قال بعنف: «ليس له الحق في أن يسأل ابنتي عن أي شيء. ومن يكون هو، على كل حال، عدا عن أنه ذلك الشخص

العديم الاحساس الذي تركك تواجهين مصيرك في تلك الطريق المظلمة منذ ثلاثة أيام.»

إذن، فقد تذكر ذلك، كما توقعت صوفي تماماً، وبللت شفتيها قائلة: «لقد أخبرتك انه أحد أصدقائي.»

قال ساخراً: «صديق... يلزمك فطنة اكثر من ذلك عند اختيار اصدقائك.»

كانت هذه اهانة متعمدة. فنظرت اليه نظرة ذات معنى وهي تقول: «ربما كنت على حق...»

تابعت تقول بجمود: «أرجو المعذرة، أظن واحداً منا يجب أن يذهب ليتحدث إلى جين.»

ولم يرد عليها إذ كان قد سبق وتحول نحو الفرس. ومضى يتحدث اليها بكل رقة وحنان.

تعثرت صوفي بالقش وهي تحاول الخروج، ولم تعرف ما إذا كان السبب في ذلك هو عدم استواء الأرض، أم أن ساقيها مازالتا ضعيفتين من جراء مشاعرها التي تحركت بفعل رقة معها، مما جعلها غاضبة من نفسها لهذه الهفوة، لتصفق الباب خلفها بشدة وهي تخرج.

تمنت لو يتدخل الحظ، فتجفل الفرس ومن ثم تسحق بأقدامها ماكسيميليان و... ووقفت فجأة في الخارج، ازاء ما ساورها من حقد مخيف، تستمع إلى ما عسى أن يكون صهيلاً او رفساً تعلم منه ثورة تلك الفرس. ولكن، لم يكن هناك سوى الصمت التام داخل الاسطبل. لا شك أن ماكسيميليان يطعم تلك الفرس الغبية بيده الآن...

في طريقها إلى الردهة، حدقت في بول وايزمن الذي كان واقفاً يتحدث إلى الرجال الذين يعملون في الاسطبل. ونظر

هو اليها مأخوذاً بعنف نظرتها تلك، ولكنها كانت غاضبة. كل انسان هنا يبدو مشغولاً بالاهتمام برفاهية تلك الفرس الغبية اكثر من الناس الذين يعيشون هنا. وبعد، فمهما قالوا أو فعلوا، فهي لا تخرج عن كونها حيوان، بينما جين... آه، تباً لماكسيميليان. فهي لا تستطيع حمله على ابداء الاهتمام بابنته اذا هو لم يشأ ذلك! وبعد، ربما كانت جين على حق في انه يهتم بفرسه اكثر من اهتمامه بها...

ليس بامكان صوفي ان تحب رجلاً يفضل مغتنياته على أسرته، فبهذا يجعل ماكسيميليان على حد سواء مع مالكولم. فهي لا تستطيع أن تمنح حباً، مهما كان ضئيلاً، لشخص مثله.

ألا يقال، كذلك، ان ذوقك، مهما بدا مختلفاً حين تنتقل من شريك إلى آخر، فان الحقيقة، وراء المظهر الخارجي، ربما ترى ان جميع أولئك الشركاء هم متشابهون؟ ومعنى هذا أن من المحتمل جداً أن تنجذب هي إلى الشخص الذي يكون مشابهاً لمالكولم أكثر من غيره...

كلا، انها لا تصدق ذلك، فماكسيميليان لا يشبه مالكولم ولن يكون مثله ابداً.

ذلك لأنها كانت تعلم انها تحبه...

كان هذا يدعو إلى السخرية... كان شيئاً عديم الجدوى لا منطق فيه بالرغم من ابداء ماكسيميليان إعجابه بها. ولكن الإعجاب ليس كالحب، وهي لا تريد شيئاً غير ذلك...

«صوفي، ما بك ساهمة هكذا في الردهة؟» وجاءها صوت خالتها يقطع عليها سلسلة افكارها تلك.

أدركت، وهي تستدير لتنظر إلى خالتها، أنها كانت

ساهمة حقاً. فقد كانت، في الواقع، واضعة قدماً على أول درجات السلم، بينما الثانية مازالت على الأرض.

أجابت متلعثمة وهي تعود فتقف في الردهة: «لا... لا شيء.»

هزت خالتها رأسها وهي تقول: «ها هي ذي وجبة طعام أخرى تتلف. لقد ألقيت في الثلاثة أيام الماضية، من الطعام اكثر مما أتذكر.»

بدا على خالتها التوتر. فقد بدت شاحبة، في الحقيقة. سألتها صوفي عابسة: «هل تشعرين بشيء، يا خالتي؟»

فتمتمت خالتها وهي ترفع يدها إلى صدغها: «كلا، في الواقع. لا بد انني أكبر في السن، يا صوفي. لأن كل هذه الأمور التي تدعو للاستياء، تجعلني اصاب بمرض الشقيقة المعتاد.»

تذكرت صوفي تلك الشقيقة التي كانت تصاب بها خالتها عندما كانت صوفي، طفلة. وان لم تكن تصيبها كثيراً، ربما مرة واحدة في السنة، ولكنها كانت تطرحها في الفراش أربعاً وعشرين ساعة.

قالت لها صوفي على الفور: «اذهبي الى الفراش يا خالتي، وسأهتم أنا بالغداء...»

هزت خالتها رأسها وقد ازداد شحوبها وهي تقول: «قلت لك ان لا أحد يريد الغداء. وأنا الآن أباشر في اعداد العشاء. وماي انتهى عملها هنا الساعة الواحدة ظهراً وذهبت إلى بيتها. في الواقع كنت ذاهبة لأرى السيد غرانت لأساله عما اذا...»

قالت صوفي بحزم وهي تدير خالتها في اتجاه جناحها في قسم الخدم: «لا تهتمي يا خالتي، فانا سأكلم ماكسيميليان في الأمر. وأنا سأعد العشاء...»

قالت خالتها وقد عبست فجأة متألمة: «أنت؟ ولكن...»

قالت هذه تطمئنها: «يمكنني أن أطبخ. وجين ستساعدني.» قالت ذلك بحزم بعد اذ طرأت هذه الفكرة ببالها فجأة. إن هذا يضع حلاً لمشكلتين في وقت واحد، هذا اذا استطاعت أن تجعل جين تنزل إلى المطبخ لتساعدها، فهذا أولاً يشغل وقت الفتاة ومن ثم لا يكون عليها أن تبقى في غرفتها تغرقها التعاسة. وثانياً، تساعدها في الطهي. نعم، انها فكرة نيرة حقاً. وهما الاثنتان، يمكنهما بالطبع، ان يجهزا شيئاً صالحاً للأكل.

بدا الفزع على وجه خالتها وهي تقول: «أتريدين من الآنسة جين ان تساعدك في اعداد العشاء؟ ولكن...»

قالت هذه بالحاح: «هل لك أن تذهبي يا خالتي؟» وكانت صوفي متأكدة من أن خالتها إذا هي لم تذهب إلى فراشها على الفور، فستصاب بشقيقة حقيقية، مما سيشل قدرتها على العمل لأيام وليس لساعات.

شهد على مقدار الألم الذي تشعر به خالتها، عدم ممانعتها في اقتراح صوفي هذا. وعادت تقول: «انك، طبعاً، ستشرحين الأمر للسيد غرانت...»

ردت عليها صوفي بضجر: «نعم، بالطبع سأشرح له الأمر.» وفكرت في أن السيد غرانت عليه ان يرضى بالواقع وبطهيها هي. وقد حان الوقت لكي يعلم ان ليس كل انسان يمكنه ان يعمل كالآلة دون كلل، مثله هو. وابتسمت لتعيد الطمأنينة إلى خالتها وهي تقول: «اذهبي الآن.» ثم سارت معها إلى غرفتها حيث تركتها هناك.

كانت جين ماتزال جالسة على سريرها عندما قرعت

صوفي الباب، ثم دخلت عليها بعد أن تجاهلت الفتاة قرعها هذا. وعلمت صوفي من نظرة واحدة إلى وجه الفتاة، أن أباها لم يصعد لرؤيتها.

قالت صوفي بحيوية: «هيا يا جين لننزل إلى أسفل.» وعندما لم تلق جواباً اضافت قائلة: «ان علينا، أنا وأنت، ان نجهز العشاء.» وعندما ادركت جين ما الذي قالته صوفي، استدارت نحوها عابسة.

عادت صوفي تقول: «نعم، لقد قلت اننا، أنا وأنت، علينا أن نجهز العشاء لهذا المساء. وإذا كانت معلوماتك في الطهي كمعلوماتي، فان في استطاعتنا أن نجهز شيئاً صالحاً للأكل.»

الحق يقال أن جين التي كانت ما تزال تشعر بالاستياء مما جرى بينها وبين ابيها، ما أن شرحت لها صوفي وضع خالتها، حتى تقبلت فكرة ان عليهما ان تجهزا، هما الاثنتين، العشاء.

سرعان ما ظهر بوضوح، بعد ما أصبحت جين هي الطاهية وصوفي هي المساعدة، ان جين ذات استعداد ورغبة في الطهي اكثر بكثير مما عند صوفي. وفي الواقع، اطلعت جين صوفي على انها تفكر في أن تتخصص في فن الطهي عندما تدخل الجامعة.

ما كان عليهما أن تقلقا بشأن الحلوى، بعد أن اكتشفتا سلطة فواكه كانت الخالة ميلي قد اعدتها للغداء ومازلت صالحة تماماً. كما أن جين قد ابتكرت طبقاً رائعاً من الاربيان. لتجهز، بعد ذلك، الدجاج بالكاري مستعملة الدجاج الذي كان قد طهي لوجبة الغداء التي لم يتناولها

أحد. وبينما كانت تغلي على الطباخ، تصاعدت رائحتها شهية للغاية، مما سرت معه صوفي للفكرة التي ساورتها في استدعاء جين لمساعدتها، منذ البداية.

كانت مساهمتها الوحيدة هي صنع سندويتشات لها ولجين لتهدىء جوعهما إلى أن تخبر ماكسيميليان عن خالتها. لم تجده، وبالتالي لم تستطع شرح أي شيء له عن ذلك، وان كانت، في الحقيقة لم تجهد نفسها بالتفتيش عنه فهي لم تكن بشوق إلى رؤيته، على كل حال، اذ انها مازالت مشمئزة من تصرفه نحو جين.

قالت لها جين بفتور عندما جلستا إلى مائدة المطبخ تتناولان القهوة وتستريحان: «لقد خرج مبكراً بعد الظهر. لقد كنت تتساءلين أين ذهب أبي، أليس كذلك؟» وتابعت بعد أن رأت صوفي تنظر اليها مستطلعة: «لقد خرج بسيارته منذ فترة عندما كنت اجهز الأربيان للطهي.» وهزت كتفيها وهي تستطرد: «ربما ذهب يزور خالتي سيليا.»

ثم اضافت وهي ترى المشاعر التي ارتسمت على ملامح صوفي: «لاتظهري كل هذا الأسى، فأنا ابنته ورغم أي انطباع سابق في نفسك، فأنا أحبه، ولكن، بالنسبة لأية امرأة قد تقع في حبه...»

شهقت صوفي قائلة: «ولكنني لست...»

هزت جين كتفيها قائلة: «ولكنك ابتدأت بذلك، هذا إذا كنت، فعلاً، لم تقعي في حبه حتى الآن...» ونظرت اليها بامعان وبدا ان ما رأته لم يعجبها.

أشاحت صوفي بوجهها عن تلك النظرات المتفحصة. وقد شعرت بأن مشاعرها مكشوفة تماماً، ثم قالت: «جين، إن والديك...»

قطبت الفتاة جبينها قائلة: «نعم؟»

قالت: «ما الذي حدث... بينهما؟» وهزت رأسها وقد ادركها الندم لالقائها هذا السؤال الخاص جداً، وما كانت لتلوم جين لو أن هذه طلبت منها أن تلزم حدودها ولا تتدخل في ما لا يعنيها. حقاً ما كان لها أن توجه مثل هذا السؤال، ولكنها كانت تريد أن تعرف... إذ يبدو انهما لم يكونا سعيدين معاً.

بدا على جين نوع من الاشمئزاز وهي تقول: «لقد كانا في طريقهما إلى الطلاق حين قتلت امي بحادث سيارة. ولا أحد يعلم ماذا حدث بينهما.» وهزت كتفيها عابسة، ثم استطردت: «كل ما كنت اعرفه انه كان من المستحيل الاقامة معهما، وهما معاً. لقد كنت في التاسعة من عمري عندما شعرت ان والديّ لم يكونا سعيدين معاً.» ولوت فمها بما يشبه السخرية بالنفس وهي تتابع: «في الحقيقة، لم يكن يبدو عليهما حقاً، أي ظل من السعادة، وأظن انهما، كالكثيرين من الأزواج، كانا يعيشان معاً لأجلي. وليس عندي فكرة عما حدث مما غير هذا التدبير من جانبهما، إذ انه، فجأة، عندما كنت في الثانية عشرة، تغير كل شيء ليصمما على الطلاق. ربما كانا قد قررا، عند ذلك، انني أصبحت كبيرة بحيث صرت أقبل فكرة انتهاء زواجهما ذاك. انني لا أعلم في الحقيقة...»

عندما كانت هذه الفتاة في الثانية عشرة، كان زواج صوفي قد ابتدأ...

والآن، بعد أربع سنوات تقريباً، وقعت في غرام والد جين. وكما أشارت جين، كان هذا جنوناً محضاً.

قال ماكسيميليان عابساً عندما أحضرت صوفي وجين طبق الأربيان ليبدأ به العشاء.

قال: «ما هذا؟» وكان بول وايزمن معهم هذا المساء وكذلك سين مع اثنين من الرجال.

نظرت جين في طبق الأربيان، متجنبة النظر في وجه والدها، وكان من الجلي انها مازالت غاضبة منه. وسألته عابسة: «انك تحب الأربيان، اليس كذلك؟»

قال وهو يرمق بعينين ضيقتين الفتاتين اللتين كانتا تضعان اطباق الطعام على المائدة: «طبعاً، أنا أحب الأربيان. ولكن، أين السيدة كرين؟»

كانت صوفي وجين قد اجتهدتا في أن تبدو المائدة بنفس المظهر الحسن الذي كانت خالتها تجعلها تبدو به، مما ربما يفسر عدم معرفة الرجال الثلاثة بغياب مدبرة المنزل، الى أن دخلت الفتاتان بالطعام، فقد كانت صوفي حريصة على أن لا تخيب امل خالتها. وعندما اخذت لها، قبل ذلك، فنجاناً من الشاي، كانت في منتهى القلق لتعرف ما الذي قامتا به، وكانت صوفي حريصة، كذلك، على أن تطمئن، هي نفسها، إلى كيفية تقبل ماكسيميليان للأرز والكاري. فقد كان طبقاً غير عادي مما يوقعهما في مأزق في ما لو لم يعجبه. ولكن خالتها طمأنتها أن هذا النوع من الطعام هو أحد الأطعمة المفضلة لديه. كما ان صوفي كانت متأكدة من أن جين ما كانت لتصنع طعاماً تعرف أن أباها لا يستسيغه.

كان ماكسيميليان قد عاد منذ ساعة او اكثر قليلاً، وكانت صوفي ماتزال في المطبخ تطهي الكاري على نار هادئة، عندما سمعت صوت سيارته عائدة.

عندما مر بجانب نافذة المطبخ، رأته أقل توتراً مما كان يبدو عليه من قبل، ولم تستطع الا ان تفكر في ما إذا كان لسيليا تايلور علاقة بذلك. ولا شك ان تلك المرأة قد قدمت له غداء كذلك.

عند ذلك، أخذت صوفي تتساءل عما دعاها إلى ان تزعج نفسها بمحاولة الاطمئنان إلى انه لم يكن متضايقاً من عشائه. وكان الأفضل لها لو أنها تركته وشأنه.

قالت جين تحدث أباها وهي تأخذ مقعدها بجانب سين: «ان السيدة كرين متوعكة قليلاً.»

أضافت صوفي بحدة: «حاولت أن أخبرك بذلك قبل الآن، ولكنني لم أجدك.» كانت صوفي قد جلست، هي أيضاً، وهي تفكر في أنها لم تخبره بعد بتهديد برايان، حتى اتصالها الهاتفي المتوعد، بأخته آلي، لم يجعله يتراجع عن قراره العنيد بكتابة هذه القصة. ولكن صوفي، حيث انها لم تجد ماكسيميليان، لم تستطع ان تخبره عن هذا الأمر أيضاً، إذن، فالذنب ذنبه إذا هو لم يعلم بذلك. أما الوقت الذي امضياه معاً في الاسطبل، فهذا لم يدخل في الحساب.

أجاب هو بلهجة جافة: «كان عليّ أن أخرج.»

قابلت نظرته بتحد قائلة: «لقد أدركت ذلك.» لقد عذبتها فكرة انه وسيليا، كانا يمضيان عصر هذا اليوم معاً. وكانت هي مشغولة في مساعدة جين في اعداد العشاء.

تابعت فجأة. إذ لم تعد تستطيع مواجهة البرود في نظراته: «وهكذا طهونا أنا وجين، وخاصة جين.»

قال سين يظهر تلذذه بالطعام وكأنه يريد أن يعوض عن تقصير ماكسيميليان في ذلك: «وهو أيضاً لذيذ جداً، لا بد

انكما، انتما الاثنتين، تعبتما في اعداده.» فأومأت جين برأسها قائلة: «نعم، في الواقع.» واستدارت نحو بول وايزمن الذي كان جالساً بجانبها قائلة: «هيا، يا بول. جرب شيئاً من هذا الاربيان.» قالت ذلك بخشونة وهي تلتقط واحدة بالشوكة من صحنه وتقدمها اليه وهي تقول باسمة: «هيا... انها لذيذة.»

توتر فم ماكسيميليان، وضاقت عيناه وهو يرى هذه الحركة الشديدة الالفة من ابنته وهي تطعم مستخدمه.

وبدا على بول انه يتمنى لو كان في اي مكان آخر غير هذا المكان بقرب جين في هذه اللحظة. ألم يكن بامكان ماكسيميليان ان يدرك أن تصرف جين هذا ما كان الا لاغاظته؟ إذ كانت لم تغفر له ما حدث هذا الصباح.

يبدو أن هذا لم يحدث، كما بدا لصوفي من نظراته الجامدة، ذلك أن طبيعته المرحة كانت تختفي بحضور جين، وكذلك نظرته المتزنة إلى الأمور. يا للرجل الأحمق.

كانت صوفي تفكر، بضيق، في كل هذا، إذ كانت هي أيضاً لم تسامحه لما بدر منه هذا الصباح. وحامت حول شفتيها ابتسامة وهي تفكر في ما عسى ان يظن في وصفها له (بالغباء).

قطع عليها حبل افكارها قائلاً بخشونة: «هل ثمة ما يبعثك على الضحك، يا صوفي؟»

رمقته بنظرة حوت شيئاً من الشعور بالذنب، إذا كانت تدرك انه لا يمكن ان يخمن ماذا كان يدور، فهو في الواقع، يعتقد أن تفكهها هذا كان على حسابه بالنسبة إلى تهريج جين مع بول.

أجابته: «لا شيء.» ثم استدارت نحو جين قائلة: «إن هذا الاربيان رائع يا جين.»

كانت تريد بذلك أن تحول انتباه الجميع عن ذلك التوتر الذي كانوا يشعرون به بين ماكسيميليان وابنته.

فقال ماكسيميليان موافقاً باقتضاب وقد لوى شفتيه بما يشبه خيبة الأمل: «يبدو أن ثقافتك الخاصة لم تكن مجرد اضاعة وقت.»

أجفلت صوفي لهذه الوخزة المتعمدة. فقد كان ماكسيميليان غاضباً تماماً.

يبدو أن أوقات تناول الطعام، في هذا المنزل، هي وقت الاسترخاء والراحة... كانت صوفي تفكر، ساخرة، في ذلك وهي تغرف بشراسة، بعض الاربيان لتضعه في صحنها. سيكون من حسن حظها إن هي خرجت من هذا المنزل دون قرحة في معدتها.

إذا هي خرجت؟

تباً، إن شعورها لترك ماكسيميليان الآن، بعد ما عرفت انها وقعت في حبه...

ستة أيام أخرى، وتكون خارج حياته... إلى الأبد...

الفصل العاشر

لم تكن صوفي نائمة عندما اندفع الباب، مفتوحاً فجأة، ليدخل شخص يكاد يقع في أرض الغرفة.

جلست بسرعة في فراشها محاولة تركيز ناظريها في تلك الظلمة، بينما كان قلبها يخفق في صدرها بعنف. لقد انتقلت إلى هذه الغرفة بجانب غرفة جين أول أمس فقط. ولما كانت من غرف الضيوف، فهي لم تكن مسكونة من قبل، ولهذا ساورها الشك في أنه ربما دخل هذه الغرفة خطأ. فمن يكون؟

تعثرت خطوات هذا الشخص مرة أخرى عندما اصطدم بمنضدة الزينة القائمة بجانب الباب.

أتراه لصاً غبياً؟ لقد أحدث ضجة كافية لإيقاظها في ما لو كانت نائمة حقاً.

تنفست بعمق وسألت بحدة أكبر مما كانت تشعر بها: «من أنت؟»

«أنه أنا...» وأطلق الرجل شتيمة بعد أن اصطدم بالمقعد القائم أمام منضدة الزينة، ليقع على السجادة مرتطماً بعنف.

شهقت صوفي قائلة بعد أن عرفت الصوت: «ماكسيميليان. إنني... ما الذي تفعله هنا؟»

عادت تقول بحيرة: «ماكسيميليان...؟»

تصاعد أنين ماكسيميليان مرة أخرى، وكان أنيناً خافتاً ينطق بالألم، مما جعل صوفي تنسى كل شيء ما عدا

أن عليها أن تساعده. لا بد أن ضرراً أصابه عندما سقط فوق المقعد، وربما أصابه كسر ما.

قالت: «ماكسيميليان، أين تشعر بالألم؟» ولكنه، عندما لم يجب، خافت أن يكون الألم في كتفه، فعادت تناديه بنفاد صبر هذه المرة: «ماكسيميليان.»

ليس عندها فكرة عن سبب حضوره... كل ما تعرفه أنه دخل إلى غرفتها متعثراً. لقد جاء إلى غرفتها متعثراً لا يستطيع الوقوف بثبات على قدميه.

قال فجأة وهو يلهث: «معدتي... آه...»

حاولت ان تساعده على النهوض قائلة: «هيا، يا ماكسيميليان. ساعدني في أن أضعك في السرير على الأقل.» وتنهدت شاعرة بالعجز. حتى ولو وضعته في السرير، ما الذي سيكون في استطاعتها عمله حينذاك؟ ولم يكن لديها فكرة، فهو لن يكون بإمكانه البقاء هنا.

أشعلت النور، وجاهدت في نقله إلى السرير.

أخيراً، نجحت في أن تجعله يستلقي على السرير، وإنما بالعرض حيث بقيت قدماه متدليتين نحو الأرض. ولكنه كان على السرير على كل حال.

فكرت صوفي، وهي تشعر بالدوار، في ما عليها أن تفعل الآن.

قطبت حاجبيها وهي تنظر إليه، لتدرك، للمرة الأولى، مبلغ الشحوب الذي يكسو وجهه. ولكن ما حدث له لم يكن سوى صدمة بمنضدة الزينة والمقعد الذي أمامها، ولا يمكن أن يكون هذا كله من أثر تلك الاصابة. كما أنه كان يتعثر في سيره منذ دخل الغرفة.

لقد كان مريضاً إذن. أهو التهاب في الزائدة الدودية؟

أخذت تهزه برفق تناديه: «ماكسيميليان؟ عزيزي، أين هو مكان الألم؟» كانت من اللهفة والقلق بحيث لم تنتبه إلى نفسها وهي تناديه بهذه الكلمة.

أخيراً استطاع أن يقول لاهثاً: «تسممت. لقد تسممت.»

أجفلت وهي تنظر إليه مصعوقة: «ماذا؟ كيف؟ ماكسيميليان؟»

هنا فتح عينيه وقد انتابته صحوة مفاجئة، وارتفعت نظراته إليها وهي منحنية تشرف عليه، كانت عيناه مثقلتين بالألم وهو يقول من بين اسنانه المصطكة: «خذيني إلى المستشفى، يا صوفي.»

نظرت إليه محملقة، ثم قالت: «سأستدعي طبيباً.»

قال وهو يشهق إثر موجة ألم مفاجئة: «لا وقت لهذا. خذيني فقط بالسيارة إلى المستشفى. أريد أن اتخلص مما في معدتي بأسرع ما يمكن. أرجوك يا صوفي.» قال ذلك منتهراً بخشونة وهو يراها مترددة لا تدري ما تفعل.

قالت وهي تغص بريقها: «هل استدعي سين؟» فقال وهو يجاهد لكي يجلس: «كلا، لا أريد أن يساعدني أحد سواك.»

صوفي كيف لم يستيقظ كل سكان المنزل أثناء كفاحهما للوصول إلى غرفة ماكسيميليان!

شعرت بالإرهاق التام بعد أن انتهت من مساعدته على ربط شريط حذائه، عندما سمعته يقول بصوت خافت: «ليست هذه هي الطريق التي كنت أحلم بوجودك فيها بقربي.»

ارتفعت نظراتها إليه بشدة وهي تسمع منه هذا، وقد تورد

وجهها لنظرته المحرقة، ثم وقفت فجأة قائلة: «لا بد أنك تشعر بتحسن الآن.» ولكنها سرعان ما شعرت بخشونتها هذه نحوه وهي ترى ملامحه تتقلص من الألم وقد ازداد شحوب وجهه ونضح العرق من جسده. إن ما دفعها إلى هذه الخشونة إنما هي الدعابة التي بدرت منه. وقالت تسأله: «ما الذي جعلك تظن أنك...» وبترت حديثها فجأة قائلة: «الأفضل أن نذهب الآن.» واندفعت إلى جانبه عندما رأته ينحني متلوياً من الألم مرة أخرى.

كادت تصرخ من الرعب، بعد أن انزلت ماكسيميليان السلم واصبحا عند الباب الخارجي، إذ رأت شبحاً يبرز من وراء الجدار فجأة، لتسمع صوتاً يقول في الظلام: «من هناك؟»

كان ذلك ما كانت تريد أن تعرفه هي أيضاً، لقد كاد هذا الرجل الأحمق يسبب لها نوبة قلبية.

كان ماكسيميليان هو الذي أجابه قائلاً: «لا بأس، يا دايفيس. إنني، والآنسة غوردون، ذاهبان للتنزه بالسيارة.»

نزهة بالسيارة؟ كيف يقال مثل هذا الكلام وهما ذاهبان إلى المستشفى في حالة تسمم؟ ولكن، يظهر أن ماكسيميليان لم يكن يستطيع، في حالته هذه، أن يشرح شيئاً لدايفيس، أو أي شخص سواه، ولم تكن صوفي، في حيرتها واضطرابها ذاك، لتهتم بما يقول.

قال: «هل يمكنك قيادة السيارة؟ لا أظن أن في امكاني ذلك.» وناولها المفاتيح وهو يصعد إلى السيارة دون انتظار جوابها.

نعم، في استطاعتها القيادة رغم أنها لم تقم بذلك إلا نادراً إذ لم يكن بإمكانها قط أن تشتري سيارة خاصة، كما أنها لم تقد من قبل سيارة بمثل قوة وحجم سيارة ماكسيميليان ألبي، أم. دبليو الفارهة هذه. ذلك أن مالكولم لم يكن ليسمح لها قط بالاقتراب من سيارته الغالية عليه.

كانت خائفة قليلاً وهي تقود هذه السيارة، ولكنها عندما رأت ماكسيميليان شبه غائب عن الوعي زال خوفها، لتركز على الطريق أمامها نحو المستشفى.

أخذت تفكر، بأسى، أثناء الطريق في مبلغ تحفظ ماكسيميليان، ما عدا أثناء وجوده في الاسطبل... لقد حفلت حياتها، بالأحداث منذ لقائها به، رغم أنها كانت تظن أن هذا الأسبوع سيمر بها كما تمر بها الأسابيع والشهور ببلادة وكآبة، إذ كانت في حاجة إلى نقود تدفعها قسط الجامعة. ولكن، بالقرب من ماكسيميليان، لم يكن ثمة بلادة أو كآبة.

«إهدأي، يا جين.»

كانت صوفي وهي تقول هذا، تحاول أن تهدىء من روع جين وهي تقطب جبينها بينما الفتاة تقفز على قدميها لتجول في الغرفة بحركات مضطربة. وقالت تتابع كلامها: «لقد أخبرتك أن اباك بخير الآن، وهو...»

صرخت جين: «ولكنه ذنبي أنا.»

كانت صوفي قد عادت إلى المنزل منذ فترة قصيرة بعدما أمضت قسماً كبيراً مما بقي من الليل، مع ماكسيميليان في المستشفى. لقد كان مصاباً بالتسمم، وقد أعطي العلاج اللازم لذلك في المستشفى، وهو الآن راقد في سرير هناك بعد ما زال عنه الخطر.

ذهبت صوفي عند عودتها إلى المطبخ مباشرة، لتجد خالتها تعمل وقد بان عليها أنها شفيت تماماً، لولا شحوب بسيط. وكان طعام الفطور قد وضع في الغرفة الصباحية. وتجنبت نظرة خالتها المتسائلة، لتخرج ملتمسة شيئاً من القهوة والخبز المحمص... إن ما جرى مؤخراً لا يمكن وصفه بسهولة... ولكن، لتجد جين جالسة إلى المائدة تتناول فطورها.

كانت تعلم جيداً أن جين ستتألم جداً لما جرى لأبيها، ولكن حالته قد تحسنت الآن.

قالت وهي ترشف القهوة: «لم يكن الذنب ذنب أحد، يا جين. فلم تكن ثمة طريقة لمعرفة...»

قاطعتها هذه باكية وقد بان الشعور بالذنب على وجهها: «أنا أعرف، ولكنني أردته فقط أن يشعر بقليل من الألم في معدته، لتصرفه الدنيء نحوي و...»

قاطعتها صوفي: «جين، لم يكن في استطاعة أحد أن يتنبأ بأن واحدة من ذلك الاربيان قد... ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟» وسألتها الجملة الأخيرة وقد قطبت جبينها بعد أن استوعبت ما قالته الفتاة.

ازدردت الفتاة ريقها بصعوبة، ثم عضت شفتها وهي تقول: «إنني أعلم أن أبي لا يستطيع أن يأكل الثوم، فهو لا يناسبه، وهكذا وضعت أنا...»

قالت صوفي: «الثوم؟ ولكنني أخبرتك يا جين أن سبب ذلك التسمم الخطير الذي أصاب أباك، إنما كان واحدة من ذلك الاربيان.»

قالت جين بعناد: «بل كان هو الثوم، لقد وضعت قليلاً منه

في الكاري لأنني أعرف أن بقية التوابل والبهارات ستغطي رائحته.» وأجفلت وهي تتذكر ذلك.

عبست صوفي بوجهها قائلة: «هل أردت أن تجعلي أباك مريضاً؟ هل تعمدت إطعامه شيئاً تعرفين أنه يسبب له المرض؟» ولم تستطع أن تصدق أن من الممكن أن تفعل جين مثل هذا، بأبيها من بين كل الناس. أم أنه الشخص الذي...

ابتدأت الفتاة الصغيرة تبكي، وهي تقول من بين دموعها: «إن الثوم، عادة، يحدث له ألماً في معدته، وهذا يسبب له فقط الأرق في الليل، ولكنه لم يحدث أن سبب له مرضاً من قبل.»

فكرت صوفي في أن الثوم لم يسبب له المرض هذه المرة كذلك لأن الطبيب كان متأكداً من أن الاربيان هو السبب، فإذا أضيف إليه الثوم الذي لم يكن يناسب ماكسيميليان، كان هذا الوضع المؤسف هو النتيجة. مسكين ماكسيميليان.

وتابعت تقول: «لقد كان الاربيان هو الذي أمرض أباك الليلة الماضية.»

نظرت إليها جين برهة غير مصدقة ما تسمع، ولكنها عندما رأت الحقيقة على وجه صوفي، تهالكت على الكرسي قائلة وهي تدفن وجهها بين يديها: «ظننت... كنت أعتقد... آه، يا صوفي!» وبدأت في البكاء.

اقتربت صوفي منها دون تردد، تحيطها بذراعيها وتحتضنها بشدة. إن ما فعلته جين لم يخرج عن كونه إغاظة طفولية... إنه لم يكن خطراً ولكنه، في نفس الوقت، يدل على مدى انهيار العلاقة بين الأب وابنته. ومن المؤكد

أن السبب في ذلك ليس أنهما، هما الاثنين، لا يهتم الواحد منهما بالآخر، ذلك لأن صوفي رأت كم تحب جين أباها، كما أنها شاهدت بعينيها، وشعرت بذلك أيضاً تعاسة ماكسيميليان أمس عندما ظن أن جين قد اختفت. لقد تحطمت العلاقات بين الاثنين لسبب ما... وقد تأكدت صوفي أن لذلك علاقة بالاتهام الذي وجهته جين لأبيها أمس. لقد كان الأمر في السابق لا يتعدى إساءة أحدهما للآخر شعورياً، أما الآن، بعد اعتراف جين، فقد تطور الأمر إلى أبعد من ذلك.

تشبثت جين بصوفي بطريقة طفولية وهي تسألها: «ما الذي عليّ أن أفعله؟»

«سنذهب معاً إلى المستشفى لنتحدث إلى أبيك.»

هزت جين رأسها محتجة، وهي تقول: «لا أستطيع، إنه سيكرهني عندما يعلم بما فعلته.»

قالت لها صوفي برقة: «لا تكوني بلهاء يا جين. إن أباك لا يمكن أن يكرهك.»

عبست جين وهي تقول بارتياب: «كلا؟ ما هو شعورك نحوي عندما تعلمين أنني مزجت طعامك بشيء يضر بك؟»

فكرت صوفي على الفور، أنها ستعتبرها مجنونة، ولا شك أن ماكسيميليان سيعتبرها كذلك هو أيضاً. ولكنها، في نفس الوقت، ليس بإمكانها ان تكتم ذلك. ليس لأنها تظن أن جين ستكون من الحماقة بحيث تكرر مثل هذه الفعلة. كل ما في الأمر هو أن هذه الحادثة سببت للفتاة الصغيرة فزعاً عنيفاً.

«ربما أحياناً، وللحظات قليلة.» انطلق هذا الصوت

الخشن المسيطر من خلفهما، هما الاثنتين، ليتابع مخاطباً جين: «عليك أن توضحي ما قلته، إنما الآن، ثمة شيء أكثر أهمية أريد أن أتحدث إلى صوفي عنه.»

«ماكسيميليان!»

شهقت صوفي ذاهلة وهي تستدير لتراه واقفاً خلفهما. لقد تركته مستلقياً على سرير في المستشفى شاحب الوجه إلى درجة بالغة، وقد استغرق في النوم بعد ذلك المرض العنيف الذي أصابه.

كان ما يزال يبدو شاحباً، وقد تندى جلده بالعرق مما يفصح عن مدى الاجهاد الذي يتعرض له لكي يستطيع الوقوف على قدميه.

اندفعت صوفي لتقف بجانبه وهي تقول بلهفة: «ما الذي تفعله هنا يا ماكسيميليان؟ ما كان ينبغي لك أن تترك السرير. ولماذا تركك الأطباء تغادر المستشفى بهذه السرعة؟»

ألقى عليها نظرة احتقار جعلتها تتوقف في طريقها قبل أن تصل إليه، وهي تنظر إليه بحيرة. ما الذي حدث منذ تركته من حوالي الساعتين، بعد أن شكرها لمعونتها له، لكي يتحول إلى مثل هذا الرجل البارد العدائي والذي يبدو وكأنه سيستل الحياة منها بيديه. لقد شعرت، منذ البداية، أنه ربما سمع قسماً من حديثها مع جين، ليعرف بعض ما حدث الليلة الماضية، ولكن هذا لا يعني أن يوجه غضبه من جين إليها هي.

قال ببرود وعيناه لا تفارقان وجهها: «لم يكن لديَ خيار.»

هزت رأسها بحيرة وهي تقول: «ولكن، ما كان للأطباء في المستشفى أن يدعوك...»

قال بازدراء بالغ: «إنني لم أسألهم.»

اتسعت عيناها دهشة وهي تقول: «أتعني..؟»

قاطعها: «لقد خرجت على مسؤوليتي، إذ، كما قلت، لم يكن لديَ خيار.»

لم تستطع صوفي أن تفهم عما يتحدث. فالذي تعرفه أنه ما كان له أن يترك سريره. وإذا هو لم يجلس الآن، فهو سرعان ما سيتهاوى على الأرض.

ردد للمرة الثالثة: «لم يكن لدي خيار عندما رأيت هذه.»

كانت (هذه) صحيفة يومية ألقاها من يده على المائدة بازدراء واضح.

«صحيفة...»

فجأة، أدركت صوفي كل شيء، حتى دون أن تنظر فيها، أدركت أن برايان قد نفذ تهديده بكتابة قصته.

الفصل الحادي عشر

قال ماكسيميليان لابنته فجأة: «اتركينا يا جين.»

قالت: «ولكن...»

تابع قائلاً بقسوة: «بعد الذي سمعته منذ لحظات، لا أظنك في وضع يسمح لك بالنقاش، أليس كذلك؟» وأطبقت جين شفتيها وقد بدت عليها الهزيمة، وكبحت أية رغبة في الاحتجاج. ولكنها كانت بعيدة عن الخوف، سواء مما حدث الليلة السابقة، أم من مظهر أبيها الصارم هذه اللحظة، وبالرغم من حزنها الذي كان منذ دقائق. ذلك أن عودة ماكسيميليان دون أن يبدو عليه أي مظهر لمرض خطير سوى بعض الشحوب. يبدو أنه جدد التمرد في نفس جين، رغم أنها سارت نحو الباب طائعة.

قال الأب بهدوء محذراً، قبل أن تغادر الفتاة الغرفة: «ولكن إياك أن تختفي تماماً، فما زال أمامنا الكثير لنتحدث عنه.»

توهجت وجنتا جين خجلاً وهي تهرول مغادرة الغرفة مغلقة الباب خلفها بارتياح واضح.

كانت صوفي قد اغتنمت فرصة محادثتهما، القصيرة تلك، لتلتقط الصحيفة من حيث وضعها ماكسيميليان على المائدة، ولم يكن عليها أن تبحث طويلاً عن المقالة التي أثارت سخطه، إذ كان قد ترك الصحيفة مفتوحة على المقالة تلك، مصدّرة بصورة تظهر ماكسيميليان وجين واقفين معاً

في حفلة سباق، وتحت هذه الصورة ظهرت صورة أصغر لصوفي. ويبدو أن برايان وجد إحدى صور طفولتها عند شقيقته آلي، فنشرها ولا بد أنها كانت في نحو السادسة عشرة من عمرها عندما أخذت لها هذه الصورة. وكان عنوان المقالة يقول (اللايدي صوفي مرافقة أسرة) وكان المعنى الذي تضمنه هذا العنوان واضحاً. ومع تلك الصورة التي صحبت ذلك، كان الانطباع بأن ماكسيميليان يحيط نفسه بالصغيرات، إن لم يكن أكثر من ذلك! فلا عجب إذا كان سخطه ذاك مبالغاً.

حققت أول فقرة في المقالة، أسوأ ما كانت تتصور. (اللايدي صوفي غوردون، الابنة المطلقة للايرل والكونتيسة الفقيرين، توظفت عند اسرة غرانت كمرافقة لوارثة ثروة غرانت ابنته جينيفر ذات الستة عشر ربيعاً، ولكن يبدو أن ماكسيميليان غرانت واللايدي صوفي هما اللذان يمضيان الأوقات المرحة معاً.)

تجمعت الدموع في عيني صوفي للهجة المهينة التي حوتها المقالة، ومنعتها دموعها تلك من إكمال القراءة. لا يمكن لأحد أن يقرأ مثل هذه النفايات ويصدقها. كيف يمكن لبرايان أن يكتب مثل هذا؟ وخنقتها الدموع.

قال ماكسيميليان باحتقار ملحوظ: «إن هذه الصحيفة لا تستحق أن يطلق عليها ذلك الاسم. فهي لا تحاول أن تنشر أية أخبار وإنما الاشاعات فقط، والاشاعات الكاذبة المغلوطة.»

عادت صوفي تقرأ بقية المقالة، من خلال دموعها، كانت الكلمات ترتفع إلى مستوى التشهير ثم تقف دونها بكل

مهارة. كانت تتضمن أن دورها كمرافقة للابنة لم يكن سوى ستار منذ البداية، وأن صوفي هي في الواقع، حبيبة ماكسيميليان... هل يمكن حقاً لبرايان أن يغريه الطموح بحيث يكتب مثل هذه الأشياء؟

قال ماكسيميليان عابساً: «لقد رأت ممرضة صغيرة السن في المستشفى، هذه الصور، ولما عرفت أنها للمريض الجديد، ظنت أنني سأبتهج برؤية صورتي في الجريدة، فأحضرتها إليّ تريني إياها، وبطبيعة الحال، اتصلت أنا بصاحب الصحيفة هذه حالما انتهيت من قراءة هذه الكلمات اللعينة.» وتابع حديثه بقسوة، ونظراته الجامدة لا تفارقان وجه صوفي. «لقد قالوا لي انهم استقوا معلوماتهم تلك من صديق موثوق للاسرة.» وتابع وقد بدا عليه التوتر: «اعتقد أنها أسرتك.»

ازدردت ريقها وقد شعرت بالغثيان لنشر الصحيفة لتفاصيل حياتها الخاصة لتحشو هذه القصة باسمي والديها المسكينين وفقرهما، هذا إلى زواجها التعس من مالكولم. قالت المقالة انها، بسبب فقر والديها، استمرت في حياتها على نفقة أحبائها الأثرياء.

أحبائها الأثرياء؟ لم يكن ثمة أي رجل في حياتها بعد مالكولم، وهذا كان زوجها وليس حبيبها، وهو طبعاً، لم يكن ثرياً وتأوهت بحزن... آه يا برايان...

قال ماكسيميليان: «بيرنيت أليس كذلك؟» وضاقت عيناه وهو يتابع: «هل اشتركتما معاً في هذا؟» وأجفلت صوفي كمن تلقى صفعة، وهتفت: «ماذا؟» فهز ماكسيميليان رأسه وقد استقرت الفكرة في ذهنه، وهو يقول مشمئزاً: «يا لي من

مغفل، لقد كنت قد ابتدأت... في الحقيقة، لقد صدقت مظهرك هذا... حتى أنني شعرت بالشفقة لأجلك، وهذ كان السبب في أنني...»

ردت عليه بحدة: «إنني لست في حاجة إلى شفقتك.» وكانت ما تزال ذاهلة لا تصدق ماورد في تلك الصحيفة. ماذا يظن نفسه هذا الرجل؟ وسمعة من تلك التي تمزقت بتلك المقالة الصحفية؟ وألقت من يدها الصحيفة وقد توهج وجهها غضباً وقدحت عيناها شرراً، وهي تقول: «إنني بالضبط، كما أبدو، يا سيد غرانت، كل ما في الأمر أنك ترى الشيء حسب الفكرة التي سبق واتخذتها.»

كان جسدها يرتجف من الغضب وهي تتابع: «ليس عندي فكرة عن السبب في ادانتك هذه وسخريتك، وقد تكون صادفت تجربة مرة في الماضي، ولكن الذي أعرفه هو أنك آخر شخص يمكن أن يتضرر أو ينخدع. لقد تزوجني مالكولم لأجل لقبي، ولم يبق هذا سراً بعد أن تم زواجنا. وقد خسر في الرهان كل ما كان معنا من نقود قليلة. وعندما حاولت منعه، ثار عليّ، ولكنني لم أكره أو أرتاب في كل رجل بسبب ما فعله مالكولم معي.»

قال ماكسيميليان بمرارة: «وأنا أيضاً لا أكره ولا ارتاب في كل امرأة.»

نظرت إليه برثاء قائلة: «كلا؟ من المؤكد أنك لا تحب أيا من جنسنا كثيراً حتى ولا ابنتك.»

قال: «دعي جينيفر خارج هذا الموضوع.»

قاطعته بحزم: «جين. انها تفضل أن تدعى جين. ولكنك لا تهتم حتى بهذا.»

بدا عليه الغضب لهذا التعنيف وقال: «إنني لا أهتم مثقال ذرة بما تفضل هي أن تدعى. إن اسمها هو جينيفر.»

قالت بازدراء وهي تهز رأسها: «يمكنني أن أرى أنك لا تهتم. ولكنني، لو كنت مكانك، لما أهمني هذا الشيء أيضاً لأنه يظهر أن هذا لن يدوم طويلاً.»

ضاقت عيناه وهو يقول: «ماذا تعنين بكلامك هذا؟»

قالت وهي تتنفس بصعوبة: «حاول أن تفهم هذا بنفسك، يا سيد غرانت. إذ يبدو أنك تعرف كل الأجوبة.» لقد تجاوزت صوفي كل حدودها الآن، ذلك أن ماكسيميليان قد وجه الاهانة ليس إلى تصرفاتها بل إلى نزاهتها وأمانتها.

حدق فيها قائلاً: «لا علاقة لك بتصرفات جينيفر.»

ردت عليه ساخطة: «لقد تعمدت ابنتك وضع الثوم لك أمس في الطعام لكي تسبب لك المرض. وهذا اكثر من مجرد عبث أطفال. فإما أن تتحدث إليها عما تفعله، وإما أن تدع غيرك يقوم بذلك...»

قال بفروغ صبر وهو يشير إلى الصحيفة: «ليس في هذه ما يتعلق بجينيفر، كما أنك لم يعد لك علاقة بها كذلك.»

لقد سبق واستنتجت صوفي كل ذلك. ليس لأنها كانت ترغب في البقاء هنا الآن، رغم الالحاح بالطلب إليها بالبقاء قرب جين، ولكن، سواء ذهبت أم بقيت الآن فإن ذلك لن يغير من حقيقة الوضع بين جين ووالدها الذي أصبح يتضمن دلائل خطيرة غير آمنة بالنسبة لكليهما.

حاولت صوفي مرة أخرى، أن تكلمه بالمنطق بصوت أكثر هدوءاً، إذ أن فقدهما لأعصابهما، هما الاثنين لن ينتج أية فائدة، فقالت: «إنها ابنتك. يمكنك أن تصدق ما تشاء

عني، أو عن أية امرأة أخرى إذا شئت، ولكن لا تبعد جين عن قلبك. فهي تحبك كثيراً.»

نظر إليها باحتقار وهو يقول: «قلت لك ان لا شأن لك بابنتي.»

تلاشى غضب صوفي الآن ليحل محله حزن عميق.

هل بلغ حكم ماكسيميليان على جين إلى هذا الحد من العمى بحيث لم يعد باستطاعته أن يرى ما يهدمه؟ كان هذا واضحاً... وكان هو كذلك، يبعد صوفي عنه، هل لأنه أحس بأنها هي أيضاً أوشكت أن تحبه؟ هذا ممكن. أما ما سبق وقاله، وهو أن تجاوبه معها كان بسبب أنه شعر بالشفقة عليها وهذا كان آخر شيء تريده منه، فإن احتقاره لها هو أفضل من هذه الشفقة.

قالت له بازدراء: «ألق نظرة أخرى على هذه المقالة، يا ماكسيميليان، وفكر في من هو الذي تضرر حقاً منها. قد يكون برايان أحمق ومؤذياً، ولكنك تتفوق عليه بذلك كما يبدو.»

استمر ماكسيميليان ينظر إليها ببرود، ثم قال بلهجة لاذعة: «حسناً. فإن رأيك ليس له قيمة لديّ.»

لقد تعمد أن يجرحها، ونجح في ذلك، وربما اكثر مما يظن. وقالت: «ولكن يظهر أن فرسك، (السيدة الرحوم) لها أهمية كبرى عندك، وهذه قصة لم يكتبها برايان.»

أجفل ماكسيميليان ونظر إليها بارتياب قائلاً: «ماذا تعنين؟»

هزت كتفيها. لم يعد لديها ما تخسره الآن إذ أنها ستترك هذا المكان بالتأكيد هذه المرة. وقالت: «لقد سبق واخبرتك

أنه يعرف أن (السيدة الرحوم) هي فرس سباق.»

ضاقت عيناه وهو يرد عليها بحدة: «هكذا إذن؟»

تنهدت لعناده هذا الذي يمنعه من أن يفهم ما تحاول أن تقوله. وقالت: «وما الذي تفعله هنا فرس سباق؟»

قال: «إن هذا ليس من شأنك اللعين.»

قاطعته بحنق: «لست أنا التي تهتم بذلك، يا ماكسيميليان. هل تشغلك نقمتك على مقالة صحفية، عما أحاول أن أجعلك تفهمه؟ لو أنك وضعت في بيتك قافلة من خيول السباق، فإن هذا لا يهمني أبداً ما دام هذا ما تريد، ولكن برايان كان مهتماً للغاية لوجود تلك الفرس هنا.»

«فليكف عن اهتمامه هذا، لأنها لم تعد هنا.»

نظرت إليه بحيرة قائلة: «ولكن...»

لقد كانت الفرس هنا أمس... كانت في الاسطبل عندما كانت هي بين ذراعي ماكسميليان... أين هي الفرس الآن؟ ومتى نقلت من هنا؟ وكيف؟ ما الذي يجري؟

أدركت أنها ستصبح مثل برايان في دس أنفها في شؤون لا تخصها. ولكن اختفاء الفرس المفاجيء أثار فضولها.

عادت إليه سخريته وهو يقول وقد بدا التحدي في عينيه: «صوفي؟»

توهج وجهها لدى سخريته هذه، وقالت: «سأذهب لأحزم أمتعتي.»

قاطعها هازئاً بخشونة: «يدهشني أنك أنهيت افراغ أمتعتك منذ آخر مرة.»

أجابت بفتور: «نعم. يظهر أن وقتي هنا كان حافلاً بالأحداث.»

ردد باشمئزاز: «الأحداث؟ ما كان لي أن أدع جينيفر تقنعني بأن تبقيا، أنتما الاثنتين، هنا منذ البداية. لولا ذلك لما كنت...» وسكت فجأة وقد أطبق فمه بشدة، وهو يقول عابساً: «هل كان كل هذا تمثيلاً، يا صوفي؟ هل كنت أنت وحبيبك لا تريدان سوى قصة؟»

فرددت بغضب: «إنه ليس حبيبي. وقد سبق وأخبرتك أنه، حتى القصة الحقيقية، لم يكتبها...» وكان دورها الآن لكي تسكت فجأة عندما سمع قرع على الباب، ليطل بعده سين.

قطب سين حاجبيه وهو يقول: «هنالك مخابرة هاتفية لك، يا صوفي، وما كان لي لولا هذا، أن ازعجكما أنتما الاثنين.» قال ذلك وهو ينظر إلى ماكسيميليان متحدياً عندما رآه يفتح فمه معترضاً على مقاطعتهما بهذا الشكل لا لشيء إلا لأن صوفي وصلتها مخابرة هاتفية. وقال متابعاً حديثه لصوفي: «ولكن الشاب كان مصراً على أن يتكلم إليك الآن.» شاب...؟ إنه برايان. لا بد أنه هو. لقد كانت تنوي أن تتحدث إليه بعد أن تترك هذا المنزل، ولقد أراحها من البحث عنه، وأطبقت فمها بصرامة وهي تفكر في ما ستقوله له.

قال ماكسيميليان ببطء ساخراً إذ أدرك هو أيضاً شخصية المتصل: «لا بد أنه يتصل بك لكي يحذرك. ولكنه تأخر قليلاً في ذلك.»

قطب سين جبينه قائلاً: «يحذرها من ماذا، يا ماكس؟ لقد قدم إليّ دايفيس تقريراً يقول إنك خرجت من المنزل مع صوفي الساعة الثانية هذا الصباح.» ونظر متسائلاً إلى مخدومه وصديقه وهو يتابع: «هل لذلك علاقة بحديثك مع صوفي الآن؟»

توتر فم ماكسيميليان لذكر ليلة أمس. وقال بخشونة:

«نعم، إنما بطريق غير مباشرة. عليك أن تذهبي لتجيبي على الهاتف، يا صوفي.» وأضاف ببطء هازئاً: «وحذريه أن قصة (السيدة الرحوم) ليست للنشر بكل تأكيد.»

أدارت رأسها إليه، وهي تتجه نحو الباب، وكان وجهه قاسياً ليس فيه أثر للين. ولم يساورها شك في أنه سيمسح بطموح برايان التراب إن تجرأ على أن يكتب هذه القصة بالذات. وارتعش جسدها خوفاً من الوعيد الواضح في لهجة ماكسيميليان. وعلمت أن عليها هي أيضاً، أن تحسب حساب هذا الوعيد بقدر ما على برايان بالضبط.

لكنها لم تدرك سر الغموض ذاك الذي يحيط بوجود (السيدة الرحوم) هنا، كما أنها لا تريد أن تدركه كذلك. وقالت بفتور: «سأخبره. وداعاً يا سين.» كانت تودعه بصوت متهدج، فقد أحبت هذا الرجل المسن في هذا الوقت القصير الذي عرفته فيه.

رد عليها بحيرة: «وداعاً، ولكنني ظننت...»

قال ماكسيميليان بخشونة وهو يسكنه بتقطيب حاجبيه: «دع عنك ذلك يا سين.»

اعترض سين قائلاً: «ولكن، يا ماكس...»

قاطعه بقوة: «قلت لك ان تدع ذلك.»

قال لها سين وهو ما زال حائراً إزاء ما يجري: «الهاتف في غرفة المكتب، يا صوفي.»

نظرت إلى وجه ماكسيميليان العنيد، وإلى البرود في عينيه نحوها، ثم أرسلت صرخة مختنقة قبل أن تركض نحو المكتب تاركة الغرفة. لقد أحبت ماكسيميليان، ولكنه يكرهها.

كانت ترتجف عندما وصلت إلى غرفة المكتب وأمضت عدة دقائق تتمالك نفسها، قبل أن تلتقط السماعة لتتحدث إلى برايان.

لكنه كان هو نفسه في حالة من الذعر للقصة التي ظهرت في الصحيفة هذا الصباح والتي لم يراع فيها مشاعر صوفي. كان مستميتاً في اقناعها بأن القصة التي نشرتها الصحيفة هذا الصباح، لم تكن هي القصة التي اعطاها هو لها. ذلك أنه اعطاهم قصة مختلفة كلياً. فقد قال مشمئزاً: «كل ذلك الكلام التافه الذي قيل عنك وعن السيد غرانت لم أصدق عينيّ عندما رأيته في الصحيفة هذا الصباح.»

قالت بفتور وقد ملأها اليأس لهذه الطريقة التي جعلتها تفترق عن ماكسيميليان: «أرجو ألا يصدقها الناس، هم أيضاً.»

قال برايان برجاء: «لا بد أن غرانت سوف... ربما لن يراها.»

أجابته بجفاء: «ولكنه رآها.»

بدا للحظة وكأنما صعق لهذا، ليقول بعدها: «ثم ماذا؟»

أجابت حانقة: «إنه سيضعها في إطار، ليعلقها بعد ذلك، في غرفته. ماذا تظنه يشعر نحوها يا برايان؟»

قال: «هل... هل هو غاضب؟»

قالت: «إنه ثائر إلى حد الاجرام.» وارتجفت وهي تفكر في أنه لو لم يقاطعها سين، لربما كان ماكسيميليان قد استسلم للرغبة في خنقها والتي كان يقاومها.

قال برايان: «سآتي لأراه، حاولي أن تشرحي له الأمر.»

«لا تفعل، إلا إذا كنت تريد أن تكون أول ضحية له.»

قال: «ولكن...»

تنهدت بضعف قائلة: «دع عنك ذلك، يا برايان. وحقق طموحك في مجال غير اسرة غرانت.» ثم أضافت بحزم: «عليّ أن أرحل الآن، يا برايان، وسأتصل بك بعد بضعة أيام.» وألقت السماعة تنهي بذلك الحديث بسرعة قبل أن يستمر في اعتراضه، أو يكثر من أسئلة عن ردة الفعل عند ماكسيميليان تجاه تلك المقالة. وإذا هو عرف أن مقالته تلك قد أدت إلى طردها من عملها، فهو سيأتي حتماً لكي يشرح الأمر لماكسيميليان بنفسه. وكانت تعلم، أكثر من أي شخص آخر، أن ذلك لن يفيد بشيء، سوى أنه سيؤخر رحيلها بينما هي تريد أن تترك هذا المكان بأسرع ما تستطيع.

كان باب غرفة جين مفتوحاً، عندما مرت به صوفي في طريقها إلى غرفتها، وكان على السرير حقيبة ثياب نصف مفتوحة.

وقفت صوفي عند الباب تراقب جين التي كانت تتحرك في أرجاء الغرفة تضيف ثيابها إلى ما في الحقيبة. وأخيراً قالت: «هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟»

استدارت جين وقد فوجئت، وبدا عليها الارتياح عندما رأت أنها صوفي ولا أحد سواها. وقالت وهي تهز كتفيها: «إنني عائدة إلى المدرسة. وعلى كل حال، يوجد بعض الفتيات مازلن باقيات في العطلة هذه وأظن من الأفضل أن أعود وأنضم إليهن. أظن ذلك اكثر أماناً.» وكان في عبوسها، وهي تنطق بجملتها الأخيرة، معنى ادركته صوفي فقالت برقة تطمئنها: «إن الاربيان هو وحده الذي يسبب المرض لأبيك، يا جين.»

أجابت جين مشمئزة من نفسها: «ولكن، ألا ترين أن التصميم كان موجوداً؟ لقد أردت أن يمرض لأنه عاملني معاملة سيئة طيلة الوقت.»

قالت صوفي: «ولكنك لم تكوني أنت التي...»

نظرت جين إليها وقد امتلأت عيناها بالدموع وهي تقول: «ليس هذا هو المهم. ألا ترين أنني أحب أبي، يا صوفي. أحبه كثيراً.»

جاء صوت ماكسيميليان من خلف صوفي يقول: «إنني مسرور جداً لسماع هذا.»

استدارت صوفي تواجهه وهي تشهق بذعر، بينما كان هو يقول: «لأنني أنا أيضاً أحبك، يا جين.»

أخذت جين تحدق فيه مذهولة لكلامه هذا، ولاستعماله اسمها مصغراً كما تفضل هي وكان هو يصر بعناد، على أن يستعمل اسمها جينيفر كاملاً.

نظرت صوفي إليه هي أيضاً إنما بحذر، يبدو أن تصرفه نحو جين قد تحسن، ولكن هذا لا يعني أنه تحسن بالنسبة إليها هي أيضاً. وفي الواقع، كانت كل الأسباب تقنعها بأنه لا يريد أن يراها مرة أخرى.

عندما دخل ماكسيميليان الغرفة ضاقت عيناه وهو يرى الحقيبة المفتوحة على السرير، وعبس وهو يقول لابنته: «ما هذا؟»

تضرج وجهها، ثم قالت وهي تتنفس بصعوبة: «لقد فكرت في أنه ربما من الأفضل للجميع، أن أعود إلى المدرسة.»

هز رأسه وقد تجهم وجهه وهو يقول: «إنك تقصدينني بذلك. إن الحق مع سين. فأنا قد أفسدت كل الأمور. فها أنت

ذي تصممين على العودة إلى المدرسة، وصوفي راحلة.»

شهقت جين وهي تقول: «ماذا؟»

تابع ماكسيميليان: «وكذلك سين.»

هنا ذهلت جين وهي تقول: «هل سين..؟ ولكن... ولكنه يعمل عندك منذ سنين، فما الذي يدعوه إلى الرحيل.»

أجاب عابساً: «ذلك لأجلك.»

رددت وقد ازداد ذهولها: «لأجلي؟»

أدركت صوفي تماماً سبب رغبة سين بالرحيل. لقد كان الرجل المسن ذاك، شديد الولع بجين، ويعتبرها جزءاً من أسرته، وقد تملكه، للطريقة التي يعاملها بها أبوها نفس شعور صوفي من الاستياء البالغ.

نظر ماكسيميليان إلى ابنته بعينين تنطقان بالحنان وهو يقول: «جين، إنني... لقد جرت بعض التعقيدات أثناء عطلتك المدرسية هذه، مما...»

قاطعته الفتاة، بحساسيتها المرهفة، قائلة: «إنني إذن تلك (التعقيدات)، أليس كذلك؟ إن هذه لفظة أخرى لكلمة (مزعجات). حسناً، ليس عليك أن تقلق، بعد الآن، لأنني راحلة.» وأخذت تلقي بعض الثياب في الحقيبة.

قال: «جين...»

قاطعته: «ولن تقلقك الوحدة بعد أن أرحل أنا وصوفي وسين.» قالت ذلك وهي تلقي نظرة من نافذتها إلى الطريق، متابعة قولها: «لأن الخالة سيليا قد وصلت الآن لتمكث معك.»

تنهد ماكسيميليان بنفاد صبر وهو يقول: «سيليا.» وبدا عليه التذمر وهو ينظر بدوره من النافذة، ثم يستدير مخاطباً

صوفي: «هل يمكنك أن تنزلي إلى غرفة الجلوس لتتحدثي إلى سيليا بينما أنا...؟»

شهقت صوفي قائلة: «أنا؟»

لماذا يريدها أن تنزل لتتحدث إلى سيليا تايلور؟ خصوصاً بعد أن ظهر من سيليا كل تلك الكراهية لها عندما تقابلتا؟ ولماذا يظن أن سيليا ستقبل التحدث معها؟

نظر ماكسيميليان إليها متوسلاً وهو يقول: «أرجوك يا صوفي. إنني في حاجة إلى التحدث مع جين.»

نظرت صوفي إليه بإمعان وقد أدركت مبلغ ما كلفه هذا التوسل إليها لمساعدته. ثم أنه كان يسألها العون مستميتاً في سبيل أن يحل الخلاف بينه وبين ابنته، ذلك لأنه يعلم الآن أن ما سبق وانذرته به، قد حدث، وأنه على وشك أن يفقد ابنته إلى الأبد إذا هو لم يفعل شيئاً في هذا السبيل.

مهما تكن نوع علاقتها الآن مع ماكسيميليان، فإن صوفي لا يمكنها إلا أن تقبل توسله هذا.

الفصل الثاني عشر

قالت سيليا ببطء وهي تربت على ساقها بصحيفة مطوية في يدها: «اللايدي صوفي غوردون؟» وأخذت تنظر إلى صوفي من أعلى إلى أسفل بعينين ضيقتين.

لم تشعر صوفي كيف نزلت إلى غرفة الجلوس حيث قادت خالتها ميلي الزائرة منذ دقائق. ولكن سيليا لم تكن جالسة، وبدا من حركاتها القلقة، أنها لم تكن تنوي ذلك.

هزت صوفي كتفيها قائلة بضيق: «هذا صحيح، أتريدين فنجان قهوة اثناء انتظارك؟»

ما الذي يجعلها تفعل ذلك؟ وكيف تستضيف سيليا تايلور من بين كل الناس، بينما منذ فترة قليلة طردها ماكسيميليان من منزله؟

كانت تقوم بذلك لأنه هو الذي طلب منها ذلك بكل رقة في غرفة جين، فلم يطاوعها قلبها على الرفض. ولوت سيليا فمها ساخرة وهي تقول: «وأنت إذن مرافقة ماكس وليس جينيفر أبداً.»

قطبت صوفي جبينها، عند هذا القول، وهي تفكر في أنه لو كان ثمة علاقة بين ماكسيميليان وهذه المرأة، لماذا إذن تصدق الاشاعات التي تنشرها صحيفة غير موثوقة؟ وأدركت صوفي فجأة أن السبب هو أنه لم تكن ثمة علاقة بين الاثنين، بصرف النظر عن مدى رغبة هذه المرأة في إنشاء مثل هذه العلاقة.

قالت سيليا وهي ما تزال تربت على ساقها بالصحيفة: «لا عجب إذن أن يصمم ماكسيميليان، على إبقائكما هنا في المنزل، رغم ذلك التهديد، بدلاً من منزلي كما سبق وقرر. لقد ظننت أنه كان خائفاً عليّ.» ونطقت بالجملة الأخيرة ساخرة من نفسها وهي تستطرد: «كم كنت مغفلة طوال هذه السنوات.» وهزت رأسها.

«تهديد؟ أي تهديد ذاك؟»

ويبدو أن سيليا ظنت، بعد أن صدقت ما تقوله الصحيفة عن علاقة بينها وبين ماكسيميليان، أنه لا بد قد أخبرها عن ذلك التهديد. وفجأة، ابتدأ كل شيء يتضح أمام صوفي.

كان هناك ارتياب ماكسيميليان بها عندما التقاها عند خالتها في المطبخ دون أن يعلم من هي. وكان تصميمه المفاجيء ذاك، على عدم إبقاء جين في المنزل رغم كل شيء، وكان ذلك مساعده الجديد، بول وايزمن، الذي لم تكن جين قد سمعت باسمه قط من قبل. كل هذا، بالإضافة إلى المستخدمين الآخرين الذين كان ماكسيميليان قد أخبرهما عنهم. وكان هنالك ذلك الأمر منه بعدم خروجهما دون أن يبلغا شخصاً ما، بمقصدهما. ثم كانت تلك الأحداث المتفرقة التي لم تفهم لها معنى في حينها، قد ابتدأت تفهمها الآن. كان ثمة اشياء كثيرة تريد الآن أن تتحدث إلى ماكسيميليان بشأنها.

وقالت سيليا وهي تلقي الصحيفة من يدها بصبر نافد: «وما الفائدة من ذلك؟ كان خطأً مني أن أحضر إلى هنا. أخبري ماكس.»

«بماذا تخبر ماكس.» كان هذا صوت ماكسيميليان الذي

دخل الغرفة في الوقت الذي كانت هي تهم فيه بمغادرتها مما أوشك معه أن يصطدم بها ونظر إلى وجهها المتوهج عابساً وهو يقول: «سيليا؟»

بان الغضب في عيني المرأة الجميلة وهي تقول: «يا لضياع السنوات التي أمضيتها في انتظار أن تنتبه إليّ. ولكن هذا قد انتهى الآن.» ودفعت شعرها الأسود الكثيف إلى الخلف وهي تستطرد: «إنك تعيشين في آمال ضائعة، يا لايدي صوفي.» واستدارت تنظر متحدية إلى صوفي التي كانت تقف تشاهد ما يجري وهي تتابع قائلة بلهجة متحدية: «هذا إذا كنت تظنين أنك وجدت مكاناً دائماً في حياته. فاستمتعي الآن قدر ما تستطيعين.» وأنهت حديثها ساخرة، ثم التفتت تقول لماكسيميليان: «وداعاً يا ماكس.» لتندفع بعدها، كالعاصفة، خارجة من الغرفة، ليسمع بعد ذلك، صوت اغلاق الباب الخارجي بعنف.

وتبع خروجها ذاك، صمت عميق، وقد خافت صوفي أن تنظر إلى ماكسيميليان. كانت واثقة من أنه يظن أنها لا بد قالت أو تصرفت بشيء أغضب سيليا وجعلها تخرج بهذا الشكل. وهو لن يصدقها مطلقاً مهما ادعت العكس، حسناً، إن الذنب ذنبه في ذلك. فهو كان يعلم أن سيليا لا تحبها.

وأخيراً، جازفت بالنظر إليه خلسة من تحت أهدابها، وسرعان ما اتسعت عيناها وهي تراه يبتسم... لم تكن ابتسامة عادية. وقالت بصوت خافت متردد: «ماكسيميليان؟» لقد كان منذ فترة قصيرة، يتفجر غضباً وعنفاً، ولم تكن تتصور انه في خلال تلك الفترة يمكن أن يتغير إلى هذا الحد. ثم أنه كان يبتسم حقاً.

وتمتم بصوت خافت: «ها أنت ذي تقولينها مرة أخرى، إنك تعرفين ما يفعله بي نطقك باسمي.»

فقالت متلعثمة: «ما... ماذا؟ ماذا تظن...؟» وحملقت فيه غير مصدقة، من غير الممكن أن يكون كلامه هذا موجهاً إليها.

تمتم قائلاً: «انني أتكلم عن المرأة التي أكدت لي ابنتي أنها تبادلني الحب، قائلة بالحرف الواحد (انني لا أستحقها.) ونظر إليها بعينين رقيقتين يتجلى الحب فيهما. وهو يقول: «وأنا كذلك، لا أظن أنني أستحقك. ولكنني أريد أن ابقيك هنا، إذا كنت توافقين.»

قالت: «تبقيني هنا؟ هل ابتدأت تصدق ما قالته تلك الصحيفة، يا ماكسيميليان؟»

فقاطعها بخشونة: «إنني لا اتحدث عن ذلك النوع من العلاقة. إنني أعني أنني اريد أن أبقيك في حياتي زوجة لي.»

ولم تستطع صوفي أن تتنفس. لا بد أنها لم تسمعه جيداً. لا يمكن أبداً أن يكون ماكسيميليان قد عرض عليها الزواج.

وقال عابساً: «إنني أعلم أنني لم أكن منطقياً معك، وكنت عنيداً، وهذه كلمات جين وليست كلماتي، وأنا اعترف بأنني أخطأت في حقك كثيراً، وأعرف أيضاً أن هذا ليس عذراً مقبولاً، ولكن الأيام القليلة الماضية كانت أحفل أيام بالهموم والقلق مضت عليّ في حياتي.»

قالت وقد استفاقت من الصدمة نوعاً ما: «تعني بالنسبة للتهديد ذاك بالنسبة (للسيدة الرحوم) ولجين؟» فقطب جبينه قائلاً: «وكيف عرفت ذلك؟»

فأجابت وهي تبتعد عنه: «لا تعد إلى العبوس مرة أخرى. لقد أخبرتني سيليا الآن فقط، ذلك لأنها كانت من الاستياء، بعد أن قرأت ما ورد في تلك الصحيفة بشأننا نحن الاثنين، بحيث لم تعد تهتم لما تقول.» وهزت رأسها، بأسى وهي تتابع: «وهذا لا يدهشني. يا للمفاجأة! إنها قصة هائلة.»

أومأ ماكسيميليان برأسه عابساً وهو يقول: «وماذا قال برايان عن نفسه؟»

هزت رأسها قائلة: «إنه يشعر بنفس الاستياء الذي نشعر نحن به... حسناً، ربما ليس بمقداره تماماً. لأن اسمه لم يرد شخصياً في المقالة، ولكن...»

قاطعها باسماً: «ها قد عدت للشكوى من جديد.»

قالت حانقة: «يجب أن أشكو طبعاً، فأنت وجين دوماً في شجار.»

قاطعها مطمئناً: «لا شجار بعد الآن، طبعاً، لا غنى لنا عن ذلك، أحياناً في المستقبل كما هو الحال مع كل الآباء والأولاد... إنني، في الحقيقة، متأكد من ذلك.» وأضاف بأسف: «ذلك لأننا متماثلان كثيراً. نعم، إنني أدرك هذا. إن جين، على الأقل، تعلم الآن أنني تصرفت بذلك الشكل لأنني أحبها وليس لأنني أرفضها من حياتي. والآن، أي شيء تشكين منه أيضاً، يا صوفي؟»

نظرت صوفي إليه شاعرة بمنتهى السرور لحل كل تلك الخلافات بينه وبين جين.

وقالت تذكره بقلق: «بقيت تلك التهديدات.»

فقال بحزم: «لقد تلقيت عدة اتصالات هاتفية يطلبون مني أن أسحب (السيدة الرحوم) من سباق معين. وإذا أنا لم

أفعل، فسيحدث شيء إما للفرس وإما لجين. وهذا، في الحقيقة، ليس بالأمر غير المعتاد بالنسبة لأصحاب خيول السباق، وغالباً ما يظهر، بعد ذلك، أن الأمر كان مجرد مزاح. ولكن هذه المرة كانت اللهجة في منتهى الجد والخطورة، خصوصاً عندما أصاب الفرس، منذ أيام، مرض غامض بدت معه وكأنها لن تتمكن من دخول السباق مرة أخرى، وتلا ذلك اتصال أخبروني به أن جين قد تكون التالية وربما لن تشفى كما كان الحال مع الفرس. ولهذا أحضرت الفرس إلى هنا لكي نقوم بحراستها بصورة أفضل، على أن تذهب جين إلى خالتها مع الحراسة اللازمة، بالطبع، ولكن ذلك لم يعد ضرورياً، لأن خادم الاسطبل الذي تسلم رشوة لكي يلوث طعام الفرس بالجراثيم، قبض عليه بالجرم المشهود هذا الصباح، أما الرجل الذي دفعه إلى ذلك، فهو ملاحق من الشرطة حالياً بجنح سابقة. ربما كان من الأفضل لو أعدت الفرس إلى عهدة المروضين حالما ظهر أن جين ستكون أكثر أماناً معي هنا، ولكنني، في ذلك الحين، لم تكن لديّ نظرة صائبة للأمر. وعندما أخذت الفرس، أمس بعد الظهر، عائداً بها إلى المروضين...» وقطب جبينه عندما حملقت فيه صوفي بدهشة وسألها بدهاء: «أين تراك ظننت أني ذهبت أمس بعد الظهر؟»

لقد ظنته مع سيليا تايلور، بينما كان هو يعيد (السيدة الرحوم) إلى مروضيها.

أومأ برأسه عندما رأى تورد وجنتيها، وقال: «لم يكن بيني وبين سيليا شيء قط. وفي الحقيقة...» وتابع ساخراً من نفسه: «كنت غبياً نوعاً ما.»

قالت ساخرة وقد اتسعت عيناها ببراءة: «أنت غبي، يا ماكسيميليان؟»

فقال متهكما: «هذا مع سيليا فقط.» ونظر إلى صوفي متابعاً: «لأنني حتى انفجارها ذاك منذ فترة قصيرة، لم يكن لديّ فكرة عن شعورها نحوي. ذلك أنني لم أفكر فيها قط من تلك الناحية. لقد كانت أخت زوجتي الصغرى، وكنت وزوجتي غير متلائمين، ولكن كان يمكن لنا، أنا وسيليا، أن نكون أسوأ مما كنا عليه أنا وأختها.»

وبعد أن اطمأنت صوفي إلى عدم وجود علاقة بين سيليا وماكسيميليان، عاد يقول: «يبدو أنني كنت، بعد موت زوجتي أقل فطنة بالنسبة إلى الأسرة، ذلك أنه لم يكن لدي فكرة عن أن جين كانت تدرك كل شيء بالنسب إليّ وإلى أمها... مما كان يشكل مني إهانة لذكائها، فقد لبثنا، أنا وجو، معاً لأجل جين فقط، وأنا لا أدري بالضبط ما هو الشيء السيىء الذي حدث بيننا.» وهز رأسه بحزن وهو يستطرد: «ربما لأننا كنا صغيري السن عندما تزوجنا، فقد كنت في العشرين، بينما كانت هي في التاسعة عشرة.»

كانت صوفي تعرف كل شيء عن زواج صغيري السن. وتابع ماكسيميليان متنهداً: «بعد أن نضجنا، كانت لكل منا آراؤه المختلفة في الحياة، إذ أن جو أرادت أن تتمشى مع الثروة والنجاح، وذلك بالانخراط في المجتمع على مستوى عال وبالأسفار، وكان ذلك بعيداً عن طبعي تماماً. وحاولت أنا التوفيق بين كل ذلك ولكن جو كانت عنيدة جداً، تريد أن تفعل ما يروق لها تماماً. ومن هنا، ابتدأت المجادلات. حتى لم تعد تنفع في النهاية. وعندما خمدت

اصواتنا، انفصل أحدنا عن الآخر ولم يبق ما يجمع بيننا سوى جين. ولم يكن الأمر سهلاً بالنسبة إلينا نحن الاثنين، أن نعيش بهذا الشكل! ولكن لم يكن ثمة بديل لذلك. إلى أن التقت جو رجلاً آخر قررت أن تتزوجه.»

وعاد يقول عابساً: «لقد كنت أنا شديد المعارضة بصرف النظر عما تعتقده جين خلاف ذلك، في أن تأخذ جو حضانة جين، وفي ذلك الحين، كانت جين في مدرسة داخلية لأنني أردت تجنبها ذلك الوضع الذي كان بيني وبين أمها، وليس لأنني أردت التخلص منها كما تظن جين.» وساد الألم ملامحه وهو ينطق بجملته الأخيرة، وتابع قائلاً: «لقد قتلت جو بعد ستة اشهر فقط من ذهاب جين إلى المدرسة الداخلية. وكنا لم نستقر بعد، على قرار بالنسبة لمستقبل جين. وهكذا ساورني شعور بالذنب وأنا أرى ابنتي تعود إلي بهذه الطريقة.» وهنا تهدج صوته وتاهت عيناه في الذكرى.

وهكذا، كما أدركت صوفي، كان تأثير ذلك الشعور بالذنب، على علاقته بابنته في ما بعد والذي جعله يكبت عواطفه نحوها وذلك في الوقت الذي كان على موت جو أن يزيد من تقاربه وابنته. وتمنت صوفي أن يكون صحيحاً ما قاله عن تفاهمه وابنته الآن، فهما، الاثنين، يستحقان كل ذلك.

قال ماكسيميليان وهو يرتجف: «عندما طال التهديد حياة جين، لأجل الفرس، تمزقت نفسي أشتاتاً. وكانت العطلة المدرسية قد اقتربت، ولكنني فكرت في أنه من الأفضل أن تكون بعيدة عني وعن الفرس فلا يعرفون مكانها

إذا هي أقامت مع سيليا. وكنت عند ذاك، قد نسيت ما سبق وطلبت من خالتك، أن تأتي بك إلى هنا لكي أجري لك مقابلة لأرى إن كنت مناسبة للعمل كمرافقة لجين. مع انني الآن مسرور لهذا النسيان.» ونظر برقة إلى وجهها المتورد وهو يتابع: «وإلا، لطلبت منها أن تتصل بك هاتفياً لكي لا تتكلفي عناء ذلك.»

قالت بسرعة: «ولكن يبدو أن جين لم يكن من رأيها الذهاب إلى سيليا.»

نظر إليها بدهاء، وقد أدرك رغبتها في تغيير الموضوع، ولكنه أجاب: «ثمة أشياء كثيرة ليست من رأي جين. لقد نسفت كل احتياطات بول عندما وضعت السرج على (السيدة الرحوم) لتمتطيها وتخرج بها، بكل بساطة.» وهز رأسه بازدراء.

إذن، فقد كان ظنها صائباً في أن بول هو موظف آخر لتأمين الحماية هنا.

عاد ماكسيميليان يقول: «ليس ثمة حاجة للقول ان هزة عنيفة كانت تجتاح الجميع هنا. وبول في طريقه الآن إلى مروضي (السيدة الرحوم) لمتابعة الحراسة هناك. ذلك أن تعامله مع الحيوان أفضل منه مع الانسان على كل حال.»

قالت صوفي بأسى: «لقد لاحظت ذلك.» وتذكرت أسئلة بول غير الحاذقة، التي انهال بها عليها في أول لقاء بينهما.

نظر إليها ماكسيميليان وقال يغيظها: «ولقد كنت أنا اتساءل عما إذا كنت تعتبرينه رجل أعمال شاب وسيم الشكل.»

فعبست قائلة: «مطلقاً. فقد كان قلبي مشغولاً برجل أعمال وسيم الشكل وإن لم يكن شاباً تماماً.»

انفجر ماكسيميليان ضاحكاً وهو يردد قولها: «رجل أعمال ليس شاباً تماماً...»

قالت تصحح كلامه ضاحكة: «رجل أعمال وسيم الشكل وإن لم يكن شاباً تماماً.»

نظر إليها بحدة، فسكتت هي، ومرت برهة قالت بعدها: «ماكسيميليان.»

فقال بصوت أجش: «صوفي. إنني أعلم أننا لم نتعرف إلى بعضنا البعض منذ مدة طويلة. ولكن، كما سبق وقلت أنت، كانت أياماً حافلة بالاحداث. ولكنني أدركت منذ أول مرة التقينا فيها، أنه كان ثمة شيء مختلف بالنسبة إليك.»

قالت ساخرة: «نعم، حقاً ثمة شيء مختلف بالنسبة إليّ.»

قال: «لا تقابلي كلامي بالهزل، يا صوفي، فأنت نزيهة.»

عبست قائلة: «لقد اتهمتني، منذ فترة قصيرة، بعدم النزاهة، وأنني استغليت وضعي هنا لإعطاء برايان تلك القصة.»

أجاب متنهداً: «ذلك لأنني فكرت في أن برايان لا يمكن أن يعرف بنفسه كل ذلك. كنت أعلم أنني أحبك، ولكن إذا كنت مشتركة في هذا الأمر مع برايان، فمعنى هذا أنك تحبينه. لقد ابقيتك هنا، ليس لأجل جين، بل لأن شعوري نحوك كان مختلفاً عن شعوري نحو أية امرأة أخرى عرفتها، ولكن لو عرفت أنك تحبين رجلاً آخر لكنت مكثت وحيداً وقد كسر حبي لك قلبي. إنني أعلم أن ليس ثمة عذراً في أن أقول لك ما قلته، ولكن ألمي كان بالغاً في ذلك الحين.»

ولم تستطع أن تلومه، في الحقيقة، لتصرفه، وقالت له بأسى: «ولكن جين أخبرتك بأنني أحبك أنت.»

قال عابساً: «لقد أخبرتني بهذا ضمن أشياء عديدة منها أنك تقومين بدراسة جامعية حرة لتكوني معلمة.»

كانت هي قد أخبرت جين بهذا أثناء عطلة نهاية الأسبوع. فقد كانت تريد أن تتخذ التعليم مهنة حتى قبل زواجها من مالكولم. وعندما انتهى زواجها عادت إليها رغبتها تلك. وأومأت برأسها قائلة: «ربما ستستغرق دراستي تلك سنوات، ولكنني أنهيت الآن حوالي الثلاث سنوات منها.»

فقال: «إنني أعلم ذلك.» ولما رأى نظرتها المتعجبة، أضاف: «علمت ذلك من التقرير.»

قال يلطف من الأمر وهو يرى التعبير الذي ارتسم على ملامحها: «أعرف ذلك. ولكن بول كان يقوم بعمله فقط، ولكن لم يكن ثمة ما يسيء إليك في ذلك التقرير، يا صوفي، بل بالعكس، فقد جعل إعجابي بك يتزايد. ذلك أنك قد نهضت من جديد، يا صوفي، وازددت قوة ضد قهر الأيام. وليس بإمكاني أنا أو أي شخص آخر، أن يوجه إليك أي انتقاد. إن تزوجتني، يا صوفي، فسوف أبذل كل طاقتي لكي أجعلك تزدادين قوة. يمكنك أن تذهبي إلى الجامعة بدوام كامل، إذا شئت.»

قالت: «انك لست في حاجة إلى أن تقدم لي الاغراءات، يا ماكسيميليان، فإن رغبتي في الزواج منك هي فوق رغبتي في أي شيء آخر. انني أريدك أنت لنفسك، يا ماكسيميليان، أما نقودك...»

فقاطعها: «نقودي لا تعني لك شيئاً. إنني أدرك ذلك، يا صوفي. ربما كنت قد بالغت في ردة الفعل تجاه برايان،

ولكنني لم أشك فيك مطلقاً بالنسبة للأمور الأخرى. وأنا متأكد من أن برايان شاب غير مؤذ، ولكنني، مع هذا، أرى نفسي تزداد كرهاً له.»

قالت صوفي: «ماكسيميليان... بالنسبة إلى برايان...»

أجاب على الفور: «نعم؟»

قالت: «لا أريدك أن تكرهه كثيراً، لأنني أشعر بأنه قد يتزوج إبنة خالتي يوماً ما. وإذا هو فعل، فأنتما الاثنين ستصبحان انسباء.» وابتسمت له.

نظر إليها ذاهلاً وهو يقول: «ابنة خالتك ولكن...»

قاطعته قائلة: «إنها قصة طويلة، يا عزيزي.»

همس قائلاً: «أذكر أنك ناديتني بهذه الكلمة ليلة أمس. وقد منحتني الأمل الكبير لفترة من الوقت. وربما كان هذا من الأسباب التي جعلتني أصدم بتلك المقالة اللعينة.»

قالت: «إنس كل شيء عن ذلك، فنحن فقط المهمين الآن.» ونظرت إليه بعينين تتدفقان حباً. إنها لن تتركه، بعد الآن. ستبقى معه وستصبح زوجته. إنها لا تستطيع تصديق هذا الأمر الذي هو من الجمال والروعة بحيث يستعصي على التصديق.

وفي تلك اللحظة، فتح الباب دون إنذار لتدخل جين إلى الغرفة وهي تقول: «حسناً، هل ستكون صوفي زوجة أبي أم لا؟»

همهم ماكسيميليان متذمراً من هذه المقاطعة، قائلاً لصوفي: «حسناً، يا زوجة الأب، استعملي سلطتك للتخلص من إبنة زوجك، هذه الساعة، قبل أن اشنقها.»

ضحكت صوفي بصوت خافت وهي تنظر إلى جين من فوق كتف ماكسيميليان، مشيرة إليها برأسها نحو الباب،

وفهمت جين على الفور، فاتجهت نحو الباب، بصمت وهي تشير إلى صوفي برفع إبهامها علامة النصر.

رفع ماكسيميليان رأسه ينظر بحيرة إلى الباب الذي أغلق خلف جين بكل هدوء.

سألها: «إلى اين تريدين الذهاب؟»

قالت: «وهل هذا يهم؟»

قال بلهجة تجلىٰ فيها الانتصار: «كلا. لا شيء يهم ما عدا أننا يحب أحدنا الآخر، وانني سأمضي بقية حياتي لأريك كم أحبك.»

ولكن صوفي لم تشك بذلك، ولا به، مطلقاً.

تمت

WWW.REWITY.COM
مرمور يا